الى استاذنا الجليل ساطع الحصري مع خالص
المودة تحية
اسحق الحسيني



معهد الدراسات العربية العالية

المدخل
إلى الأدب العربي المعاصر

تأليف

الدكتور إسحق موسى الحسيني

١٩٦٣

١٩٦٣


م. سرمد حاتم شكر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السابق أعظم من فضل اللاحق . وقد سبق إلى الكتابة فى هذا الموضوع عدد كبير من أفاضل المؤلفين ، ابتداء من مصطفى صادق الرافعى مؤلف « تاريخ آداب العرب » سنة ١٨٩٣ ، فجرجى زيدان مؤلف « تاريخ آداب اللغة العربية » سنة ١٩١١ ، إلى عمر الدسوقى مؤلف «فى الأدب الحديث» سنة ١٩٤٨ ، فأنيس الخورى المقدسى مؤلف « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث» سنة ١٩٥٢ ، من العرب . وابتداء من يوسف هامّر بورجستال J. von Hammer-Purgstall مؤلف « تاريخ أدب العرب» Literaturgeschichte der Araber سنة ١٨٥٠ — ١٨٥٦ فكارل بروكلمان Carl Brockelmann مؤلف « تاريخ الأدب العربى» Geschichte der Arabischen Literatur ، سنة ١٨٩٨ — ١٩٠٠ ، إلى شارل بلاّت Charles Pellat مؤلف « اللغة العربية وأدبها » Langue et Littérature Arabes سنة ١٩٥٢ ، من المستعربين .

* * *

وليس القصد أن يحل هذا الكتاب محل أى من الكتب السابقة ، فلكل منها هدف وفائدة . على أن أمرين يسوغان صدور هذا الكتاب . الأول : عرض الأدب المعاصر حسب فنونه من شعر ومسرحية وقصة وسيرة وما إليها . ومعظم الأدباء المعاصرين شاركوا فى غير فن واحد . فناصيف اليازجى ـ مثلا ـ جمع بين الشعر والنثر . وأحمد شوقى جمع بين الشعر والنثر والمسرحية . وحافظ إبراهيم جمع بين الشعر والنثر والمسرحية . وسلك الأدباء الأحياء المسلك نفسه . فجمع الدكتور طه حسين بين النثر والقصة والسيرة والنقد الأدبى . وجمع توفيق

الحكيم بين المسرحية والقصة والأقصوصة والنقد الأدبى . وهذا المنهج يتيح للقارىء أن يدرس آثار كل منهم متفرقة فى مواضعها من الفنون الأدبية المختلفة. فنثر ناصيف اليازجى ومحمد عبده ومصطفى لطفى المنفلوطى ومحمد المويلحى وجبران خليل جبران ومصطفى صادق الرافعى وأمين الريحانى وشكيب أرسلان وعبد العزيز البشرى وإبراهيم عبد القادر المازنى وخليل السكاكينى وأضرابهم يكون فنا واحداً . وكذلك شعرهم وقصصهم ومسرحياتهم .

والمسوغ الثانى أن الكتاب يقصد الإحاطة بآثار الأدباء المعاصرين فى مختلف بلدانهم قدر المستطاع . فأدب العرب أدب أمة واحدة ، موحدة الوجدان واللسان ، والآمال والآلام ، وإن فرقت بينها فى الظاهر أسماء وألقاب خالية من المدلول الأصيل . فقارىء شعر أحمد شوقى يقرؤه ويتأثر به دون نظر إلى البلد الذى ينتسب إليه . وقارىء شعر أبى القاسم الشابى يقرؤه دون أن يلقى بالا إلى موطنه الترابى . وهكذا نرى شعر العرب شعر الأمة العربية كلها ، ونثرهم نثرها كلها ، وقصصهم قصصها كلها . وقد قيل إن الأدب لا موطن له . ونحن نقول : إن أدبنا موطنه وجدان الأمة العربية ولسانها المبين ، فى إطاره الخاص ، ووجدان الإنسانية كلها فى إطاره العام . وإن وقعت تجزئة التربة بالقوة والسلطان فإن تجزئة الوجدان واللسان امتنعت فى كل زمان ، فى قديم تاريخنا وحديثه .

* * *

وهذا الكتاب مدخل إلى الأدب المعاصر الذى يتولى عرض فنونه زملاء أكفياء فى جزء تال . وقد استلزمت خطة التأليف واتساع رقعة الوطن العربى الإيجاز والتلميح . ولعل طالب التفصيل يجد بغيته فى المراجع التى أثبتت فى كل فصل .

والكمال لله ، وفوق كل ذى علم عليم .

الفصل الأول

بداية الأدب الحديث

— ١ —

يعد الأدب العربى من أقدم الآداب العالمية الحيـة ، إذ يرجع إلى خمسة عشر قرناً خلت . وهو إلى ذلك من أخصب الآداب العالميـة وأكثرها تنوعاً وأبعدها أثراً فى حياة العرب والشعوب التى جاورتهم أو اتصلت بهم .

وقد قال الدكتور طه حسين : « لسنا نعرف لغة حية أتيح لهـا ما أتيح للعربية من هذه الحياة الطويلة الخصبة . ومن البقاء على الأحـداث والنوائب دون أن يمسها الفساد أو يدركها شىء من الاختلال . فقـد كانت مزدهرة قد ملأت الأرض شرقها وغربها علماً وأدباً حين أخـذت الفرنسية تنشأ ويسجل فيها بعض الأحداث فى القرن الحـادى عشر للمسيح . واللغة الفرنسية أقدم اللغات الأوربية الحية وأبعدها عهداً[١] »

وذهب هذا المذهب كثير من الباحثين ، منهم روحى الخالدى فى كتابه (تاريخ الأدب عند الإفرنج والعرب)[٢] ، وسليمان البستانى فى مقدمة ترجمة (الإلياذة لهوميروس)[٣]

ويرجع خصبه وتنوعه وبعـد أثره إلى جملة عوامل ، منها طبيعة اللغة العربية المرنة التى تجمع بين دقة اللغـة اللاتينية المعربة ويسر اللغة الإنجليزية التحليلية . وآية ذلك أن العرب استطاعوا أن ينقلوا جزءاً غير قليل من التراث

---

(١) مقدمة المعجم الـكبير ج ١ ، ص د القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) ص ١٠٧ القاهرة ١٩٠٤ .

(٣) ص ١١٥ القاهرة ١٩٠٤ .

الإنسانى من مصادره الهندية والفارسية والإغريقية واللاتينية قديما ، والإنجليزية والفرنسية والألمانية حديثاً ، دون أن تخذلهم اللغة . ومنها أن العرب حين بسطوا سلطانهم شرقاً وغربا استرشدوا بحكمة فى غاية الإيجاز والإيحاء هى (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيثما وجدها) ، وبفضل هذه الحكمة نقلوا ما وصلت إليه أيديهم من علوم الأمم وآدابها ، واستساغوها وحافظوا عليها حتى أضحت جزءاً من تراثهم . وكان العرب صلة الوصل بين التراث الإغريقى واللاتينى القديم وبين النهضة الأوربية الحديثة . ومنها أن شعوبا غير عربية عربها الإسلام فنفخت فى الأدب العربى روحا جديدة ، وانتقل بذلك من النطاق الإقليمى الضيق إلى النطاق الإنسانى الرحيب . فأدب العرب فى عصور الازدهار أدب شعوب كثيرة صبت فيه كما تصب الروافد فى النهر الكبير وتزيده قوة واندفاعا . ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن عدداً كبيراً من علماء العرب وكتابهم وشعرائهم ومؤرخيهم انحدروا من أصول غير عربية . وكان الاسلام العروة الوثقى التى ألفت بينهم ، ووحدت لسانهم ، ولونت تراثهم .

— ٢ —

ظل الأدب العربى سائراً فى مجراه الواسع القوى ، متسماً بالصبغة العالمية ، إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى فى المشرق ، وإلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى فى الأندلس وشمالى افريقيا . ومن ثم أخذ مجراه يضيق ، وقوته تضعف ، بسبب ماتعرض له العالم العربى من غزوات طاغية دمرت مدنه وأحرقت الجزء الأكبر من تراثه الفكرى ، وشردت علماءه وأدباءه ؛ وبسبب تفكك أوصاله وتجزئه دولته المترامية الأطراف إلى دويلات صغير متناحرة ؛ وبسبب غلبة الأعاجم عليه مدة تزيد على خمسة قرون ؛ وما نجم عن ذلك كله من مظاهر الضعف والاضطراب فى داخل المجتمع العربى .

وكادت هذه الأحداث الجسام أن تودى بالعرب وحضارتهم وأدبهم لولا أربعة عوامل رئيسة :

أولها : أن حكم الأعاجم من مغول وأتراك لم يمتد إلى جميع البلاد العربية .

فقد ظلت مناطق فى منأى عن حكمهم ، وخاصة بلاد الجزيرة العربية وشمالى افريقيا . ففى العصر المغولى من سنة ٦٥٦ ﻫ إلى ٩٢٣ﻫ انقسم العالم الاسلامى إلى ثلاثة أقسام ، بين المماليك والمغول والعرب . كانت مصر والشام من نصيب المماليك — من شراكسة وأتراك — وكانت العراق وفارس من نصيب المغول وكانت بلاد اليمن والمغرب بيد العرب . وفى العصر العثمانى ، من سنة ٩٢٣ ﻫ = ١٥١٧ م إلى سنة ١٢١٣ﻫ = ١٧٩٨ م تعرض الأدب العربى لخطر داهم بسبب وقوع العالم العربى ـ عدا مناطق صغيرة داخل الجزيرة ـ تحت سلطان الأتراك . ولكن ظهرت عوامل أخرى أنقذته من ذلك الخطر . وسرعان ما أزالت مصر هذا الحكم واستردت شخصيتها العربية المستقلة .

ثانيها : أن اللغة العربية ظلت فى جميع هذه البلاد ، وفى جميع الأدوار ، ذات سيادة تامة فى الدين والعلم ، وذات سيادة كبيرة فى السياسة . وظلت العربية لسان الشعوب العربية ولسان الدولة فى مصر والشام طوال حكم المماليك . واستمرت لغة الشعوب العربية زمن الأتراك العثمانيين مع اصطناعهم التركية لساناً للدولة . وألف عدد كبير من الأعاجم من مغول وأتراك كتباً باللغة العربية [1] .

ولم تسيطر لغة أعجمية ، فارسية أو تركية ، على أى قطر عربى ، منذ سقوط

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ج ٣ / ١١١ القاهرة ١٩١٤ .

الخلافة العباسية سنة٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م إلى عصر النهضة الحديثة سيطرة تودى باللغة العربية .

وحاول الأتراك العثمانيون زمن سيادة حزب الاتحاد والترقى — قبل الحرب العالمية الأولى وفى أثنائها — أن يُتَرِّكوا العرب فى العراق والشام . ولكن هذه المحاولة أخفقت اخفاقاً ذريعاً ، وأحدثت رد فعل فى الانتفاضة القومية فى الحرب العالمية الأولى . ولم تتعد هذه المحاولة هذين الاقليمين . وظلت مصر و بلاد شمالى افريقيا والجزيرة العربية بعيدة عن هذه المحاولة ، وإن لم تنج من التأثر بها نسبيا .

ثالثها : أن الاسلام كان دين الأعاجم من مغول وفرس وأتراك . والإسلام لغته العربية بقدر ما كانت اللغة اللاتينية لغة الكنيسة الكاثوليكية ، واليونانية لغة الكنيسة الأرثوذكسية وكانت الدراسة الدينية فى الجوامع والمدارس كالأزهر والنظامية والمستنصرية والقرويين والزيتونة بالعربية وحدها فى جميع الأدوار . وبذلك صانت هذه المؤسسات العربيةَ مما كانت تتعرض له من عوامل الضعف أو الاندثار .

رابعها : أن قوة التراث العربى القديم فى الآداب والعلوم المدنية والدينية كانت درعاً آخر رد سهام الموت . ولا شك فى أن هذا التراث الذى ظل يتجمع وينمو مدة ستة قرون فى بقعة واسعة من العالم ، يمتص حضارات وآداباً أجنبية من المشرق والمغرب ، كان أقوى من أن يتهافت أمام أحداث سياسية .

ومن الظواهر التى تسترعى النظر أن الحضارة العربية أصبحت حضارة الأمم الأعجمية الغالبة . وهذه ظاهرة اجتماعية لها أشباه عند كثير من الأمم .

ويقرر علم الاجتماع أنه إذا حكمت أمة قليلة الحضارة أمة قوية الحضارة

أو أكثر منها حضارة أخذت حضارتها . وزاد هذا العامل الاجتماعى قوة سلطان الدين الذى تداخل باللغة العربية والأدب العربى تداخلا عجيباً .

والخلاصة ان الأدب العربى ظل حيا يسير فى مجراه فى مختلف العصور منذ الجاهلية إلى الوقت الحاضر ، يتعرض لعوامل تقوية حيناً وتضعفه حيناً آخر . ولكنه لم ينقطع فى أى عصر من العصور ولم يضعف إلى الحد الذى يعرضه للاندثار .

ومع ذلك كله كان انقشاع الحكم الأعجمى الذى استمر فى مصر من سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م إلى سنة ١٢٢٠هـ = ١٨٠٥م ، وفى بلاد الشام والعراق إلى ١٣٣٧هـ = سنة ١٩١٨م ، عاملا من أهم العوامل فى استرداد الأدب العربى قواه المنهوكة ، وسيره فى طريق جديدة .

— ٣ —

يذهب معظم الباحثين فى الأدب العربى إلى أن بداية النهضة الأدبية الحديثة ترجع إلى فتح نابليون مصر سنة ١٧٩٨[١] . ولكن توجد مدرسة حديثة تنكر هذا الرأى وتدحضه بالحجج القوية[٢] . ومهما يكن من شىء فإن الحملة الفرنسية مكثت ثلاث سنوات فى مصر ، وعبرت بلاد الشام عبوراً سطحياً دون أن تترك أى أثر حضارى فيها .

لقد هزت الحملة البلاد العربية هزاً عنيفاً ، وأرمضت قلوب العرب والمسلمين ، وفتحت عيونهم على حالهم الذى لا يحمد ، وعلى حال عدوهم المسلح بالحديد والنار وبالعلم وفنون الدعاية . وهذا عامل لا ينكر . ولكنه عامل خارجى لا يكفى

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٤/٨٩؛ مقال لأدوار حنين فى مجلة المشرق مجلد ٣٢ سنة ١٩٣٤ ص ٥٧٧ الخ . . .

(٢) آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع لساطع الحصرى ص ٥٠ القاهرة ١٩٥١

لإحداث نهضة . فالنهضات تحدث نتيجة عوامل داخلية تغير مجرى الحياة الآسن، وتنشر العلوم والمعارف الحديثة ، وتقوى المشاعر القومية ، وتضع مثلا عليها تستشرفها النفوس ، ثم يتمخض عن ذلك كله أدب ينبثق عن وجدان الأمة وأفكارها المستجدة وحضارتها النامية .

وقد شهدت بلاد شمالى أفريقيا حملات مشابهة لحملة نابليون ، وإن جاءت متأخرة عنها . فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣١م وتونس سنة ١٨٨١ م وكان من نتائج هذا الاحتلال أن ضعفت اللغة العربية والأدب العربى فى كلا البلدين، وكادت اللغة الفرنسية تحل محل اللغة العربية ، ولم يستفد البلدان العربيان نتيجة ذلك حضارة أو شبه حضارة .

لاشك فى أن لقاء الحضارات والآداب ذو فوائد عظيمة . وهذا قانون عام . فما من أمة ترجمت علوم أمة أرقى منها إلا زادت علماً . ولكن دخول الجيوش بقصد الاحتلال والاستثمار يغنى الأمة الغالبة ويفقر الأمة المغلوبة . ولقاء الحضارات والآداب لايثمر خيراً إلا إذا كانت بواعثه مطهرة من رجس السيطرة والاستغلال، منساقة مع نزعات الخير والمحبة والتعاون ، مقرونة بالرضى والتقدير الباطنيين . وقد التقى الأدب العربى الحديث بالآداب العالمية ، ولا سيما الغربية ، على هذا الصعيد الحر الخير فى غير فن من فنونه ، وأفاد منها أعظم فائدة . والتقى بها قبل ذلك فى العصر العباسى وأصاب خيراً كثيراً .

يضاف إلى ذلك أن الأستاذ هـ . ا . ر . جب يقرر فى كتابه (الأدب العربى)(١) أن النهضة الأدبية الحديثة لم تبدأ فى مصر ، ولا بتأثير الضغط السياسى الأوربى ، بل بدأت فى بيروت بتأثير البعثات التعليمية .

والواقع أن لبنان سبق سائر البلاد العربية فى اتصاله بالآداب الأوربية

---

(١) Arabic literature ص ١١٧ .

والإفادة منها قبل الحملة الفرنسية بمدة . جاء فى كتاب (لبنان : مباحث علمية واجتماعية)[1] : « وفى القرن الثامن عشر أنشئت فى لبنان الرهبانيات الجديدة من الطائفتين الكاثوليكيتين المارونية والروم الملكية . فكان إنشاؤها من أعظم الدواعى إلى نهضة لبنان الأدبية ، إذ جعلت تلك الرهبانيات فى قوانينها العناية بالأحداث وتهذيب الناشئة مع وجود معظم أديرتها فى أنحاء لبنان » . وجاء فيه : « ومما وسع دائرة المعارف فى لبنان مدة القرنين السابع عشر والثامن عشر ما نقله اللبنانيون المتخرجون فى رومية (روما) والمرسلون إلى بلاد الشام ، إذ عربوا محاسن التآليف اللاتينية والطليانية والأسبانية والفرنساوية فبلغ عددها بضعة آلاف . وقد اشتهر فى جملتهم المطران جرمانوس فرحات (+ ١٧٣٢م) الذى عرب عدة كتب . واشتهر بين المرسلين اليسوعيين فى وفرة تعريباتهم الأب بطرس فروماج الذى نقل إلى العربية نيفا وثلاثين كتاباً ، والأب حبيب شيزو الذى يروى له من التآليف نحو الـ ٤٠٠ ، فبلغت بهمة هؤلاء الأفاضل علوم الغربيين وآدابهم إلى أقطارنا الشرقية » .

— ٤ —

حقاً أن لبنان سبق سائر البلاد العربية فى اتصاله بالفكر الغربى وتأثره بالآداب الغربية . ولكن رقعة لبنان الصغيرة وقلة عدد سكانه وموارده لم تتح له أن ينمى الخميرة الجديدة وأن يكون محوراً للبعث والإشراق . والدليل على ذلك أن معظم اللبنانيين الذين نالوا حظاً من العلوم والآداب الحديثة هاجروا إلى وادى النيل الخصيب وألقوا رحالهم فيه وأسهموا فى تقدمه الأدبى .

وقد قام بالزعامة بلد عربى آخر ذو موارد مادية وأدبية ضخمة هو مصر .

---

(١) لبنان ، مباحث علمية واجتماعية عنى بنشرها لجنة من الأدباء بهمة اسماعيل حق بك متصرف لبنان ص ٤٦٦ بيروت ١٣٣٤ :

فمنذ بداية القرن التاسع عشر صحَّ عزمها على استرداد استقلالها وتوكيد طابعها العربى . وقد روى بوزل كونت **Boisle Conte** أن ابراهيم باشا قال له : «ما أنا بتركى بل أنا ابن مصر . إن شمسها قد غيرت دمى فجعلتنى عربيا قحاً »[1]. وكان ذلك بداية لا تجاه جديد نحوالاندماج بالشعب العربى ومواكبته فى السير نحو أهدافه الطبيعية الصحيحة . وفى سنة ١٨٤١ م. صدر فرمان يجعل الحكم فى أسرة محمد على ، فاكتسبت مصر به استقلالا قانونياً عن دولة الخلافة العثمانية . ومنذ ذلك الحين سارت فى طريق الاستقلال خطوة خطوة إلى أن تحقق لها كمال الاستقلال وحرية توجيه الشعب نحو أهدافه القومية ، إثر ثورة ٢٣ يوليو (حزيران) سنة ١٩٥٢ .

أما بلاد الشام والعراق وشمالى أفريقيا فقد صممت هى أيضاً على الحفاظ على طابعها العربى . وكانت اللغة التركية لغة ثانوية لا أكثر . ولم يستترك إلا عدد قليل بالقياس إلى سواد الشعب العربى . ويلاحظ أن الأتراك أنفسهم تأثروا — لغة وثقافة — بالعربية إلى حد كبير حتى كتب بعضهم بالعربية . وبدلا من أن تتغلب التركية على العربية تغلبت العربية على التركية .

ومع أن الأتراك الذين نقلوا الخلافة إلى عاصمتهم فى القرن السادس عشر الميلادى ، وحصروا فى أنفسهم مركز القيادة والتوجيه للعالم العربى قاطبة ، كان بوسعهم أن يستعينوا بالدين لإضعاف القومية العربية ، إلا أن المزج القوى بين الإسلام والعربية من جهة ، وتأثر الأتراك بالفكر العربى بوساطة الإسلام من جهة ثانية ، وكون العربية لغة الشعوب العربية من جهة ثالثة ، لم تسعفهم .

---

(١) انظر الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث لأنيس الخورى المقدسى ص ١٦ ، بيروت ١٩٦٠ .

ولابد من ذكر حقيقة أخرى ، هى أن العرب المسيحيين فى بلاد الشام — بمعناها الواسع — كانوا عاملا فى الامتناع عن التترك . وهذه الحقيقة ذات شأن . لأن الحكم العثمانى لم ينحسر عن بلاد الشام إلا بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ . ولم تكن بلاد الشام من القوة والاتحاد ، بسبب تعدد الأقليات العرقية والطائفية فيها ، — عكس مصر — بحيث تستطيع الحفاظ على عروبتها صافية . ولذا كان موقف العرب المسيحيين طوال الحكم العثمانى ذا أثر فعال فى حفظ العربية . ولهذا السبب — أيضاً — كان العرب المسيحيون فى بلاد الشام قبل الحرب العالمية الأولى وفى أثنائها من أشد السكان تحمساً للقومية العربية وحفظاً للغة العربية . وربما كان ذلك علة عنايتهم باللغة العربية فى الأديرة والمدارس الطائفية .

وإذا كان المسلمون يشعرون بالعطف على الخلافه العثمانية والولاء للدولة العثمانية ويضحون من أجل ذلك بشىء من عصبيتهم القومية ، فإن العرب المسيحيين لم يكن عندهم هذا الشعور ، ورأوا الأتراك غزاة لا تربطهم بهم أية رابطة .

وما كادت الدولة العثمانية تضطرب وتضعف فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى هبوا يدعون إلى القومية العربية بحماسة .

ومع أن الدول الأجنبية التى ورثت السيطرة التركية على بلاد الشام تمنت بعد الحرب العالمية الأولى أن تضعف هذه القومية فى بلاد الشام والعراق تدريجاً حتى يسلس لها الحكم ، وكى يحدث فى النفوس فراغ مطلق تملؤه بما تشاء من أهواء ، إلا أنها أخفقت فى ذلك ، لأن القومية العربية التى تظاهرت بتأييدها قبيل الحرب العالمية وفى أثنائها كانت أقوى من أن تزول بسهولة ، ولأن مصر كانت قد خطت نحو القومية خطوة واسعة .

لا مراء فى أن حفظ العربية لغةً لسواد الشعب العربى ولغة للعلوم الدينية والأدبية كان العامل الأول فى سلامة الأمة العربية وحفظ الوحدة القومية ، ومن ثم فى انطلاق الأمة نحو حياة جديدة تتفق ومثلها العليا . ومن المحقق أن الأمة العربية لو تخلت عن لسانها العربى واصطنعت اللسان التركى ما كانت عربية بل كانت تركية .

حقا إن تعلق الأمة العربية بقوميتها لم يكن مصدره حفظ اللغة فحسب ، وأن عوامل أخرى أسهمت فى هذا التعلق من أظهرها الدين ، والتراث الضخم الذى خلفه العرب فى العلوم والآداب ، والطبيعة الجغرافية التى يسرت الهجرة المستمرة بين البلدان العربية ، إلا أن سلامة اللسان العربى كان العامل الأول فى حفظ مكنونات النفس العربية والوجدان العربى ، وما ينبثق عنها من مشاعر وأفكار .

وتوجد ظاهرة فى تاريخ العرب الطويل ، وإن لم تقتصر عليهم وحدهم ، أشار إليها كليمان هوار Clément Huart فى كتابه (تاريخ الأدب العربى)[1] هى حب العرب الفطرى للأدب . وقد ظلت هذه الظاهرة ملازمة إياهم ، مع ما أصابهم من محن وخطوب ، تزكو حينا وتخبو حينا آخر ، ولكنها لم تنطفىء .

ومن لوازم الأدب الطبيعية الفنية المتألفة من الخيال المحلق والعاطفة المشبوبة والتأمل فى الحياة والكلمه النافذة . ولا يوجد أدب بغير هذه اللوازم ، لأنها منه بمثابة أصابع الكف لليد .

ولكن هذه الصفات لا تبقى دائما على حالها من القوة والصفاء فالحياة

(١) Clèment Huart, A History of Arabic Literature. London 1903، P. 411

الأدبية جملة تتأثر بسائر الحيوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية ، حتى يصح القول إنها نتيجة لها ، لأن الأدب فيض نفسانى عن ذات لا انفصال لها عن الجسم والعقل وعن الزمان والمكان .

ولذا ما كادت الحياة العربية تضطرب ، بعد ركود طويل ، فى القرن التاسع عشر حتى بدأ الأدب نفسه يضطرب و يتلون بألوان جديدة .

وما أسباب هذا الاضطراب ؟

الفصل الثانى

العوامل الفعالة فى الأدب الحديث

— ١ —

كانت الأمبراطورية العثمانية مغلقة أبوابها فى مطلع القرن التاسع عشر ، ليس لديها ما تعطى ولا تعرف ماذا تأخذ ، حالها كحال اليابان قبل زمن الأمبراطور (ميجى) . ثم أخذت الطرقات تدق أبواب الأمبراطورية بعنفٍ . وبدأ النذير باحتلال شمالىّ أفريقيا ، بقعةً بعد أخرى . وكان المد الغربى فى أوجه ، بعد أن دخلت أوربا فى عصر جديد من الاستقرار السياسى والصناعة والعلم التجريبى . ولا شك فى أن الزيت الذى أنار المصباح الغربى إنما استخلص من بلاد الشرق .

ودخلت علاقة أوربا بالشرق مرحلة جديدة أثر فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ م . فقد أضحت القناة شرياناً حيوياً خطير الشأن لإستيراد المواد الأولية من الشرقين الأقصى والأوسط ، وتصدير المصنوعات إليهما .

كانت عنايةُ الغرب بالشرق دينيةً ـ سياسيةً ـ فأصبحت الآن اقتصادية ـ استراتيجية أيضا ولذلك كان لابد من غزو البلاد من الداخل ، بإرسال البعثات الدينية ومعها المدارس والملاجىء والمستشفيات والمطابع وما يتبعها من وسائل الحياة الحديثة . وكان الشرق العربى يعيش فى ظلمات شبيهة بظلمات القرون الوسطى الأوربية . وما كادت طلائع الغزو تطل حتى استقبلها بتلهف ، ليتناول منها الترياق .

ووقعت أحداث أحسن الغرب استغلالها لترسخ قدماه ، سواء أكان له

فيها أصبح أم لم يكن . بدأت بفتح إبراهيم باشـــا بلاد العرب الأسيوية سنة ١٨٣١ . وكأن إبراهيم أراد أن يرد للغرب عرفه ، فسمح لمؤسساته الأجنبية أن تدخل وتتوسع .

ثم جاءت حوادث ١٨٦٠ التى أدت إلى تدخل الدول الأوربية ومنح لبنان امتيازات خاصة أعانت على توطيد المؤسسات الغربية ، وإنشاء المزيد منها . وتقاسمت الدول الأوربية الطوائف المسيحية ، فروسيا ترعى الأرثوذكس ، وأمريكا ترعى البروتستانت ، وفرنسا الـكاثوليك . وكانت هذه الحوادث من أسباب الهجرة إلى أمريكا حيث التقت العقلية العربية بالعقلية الغربية فى بيئة متحررة . وكان لبنان فى هذه المرحلة مركز الإشعاع ، وهرع الطلاب إلى مؤسساته من جميع أنحاء العالم العربى ، بعد أن كان الأزهر وحده قبلة العرب .

وولى أمر مصر اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ ، وأطلق للجاليات الأوربية ومؤسساتها الحرية بأوسع نطاق ، فتدفق عليها التجار والعلماء والمغامرون ، كل يعمل فى ميدانه ، على وفق سياسة مخططة .

وبعد أن أخفقت ثورة عرابى احتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ . ثم دخلت لغتهم المدارس منافسة اللغة العربية واللغة الفرنسية . ودام الحال كذلك إلى أن عرب سعد زغلول التعليم فى أثناء توليه وزارة المعارف .

وشرعت فرنسا فى نشر ثقافتها فى الجزائر وتونس ثم فى مراكش على منهج جديد ، إذ أرادت أن تحل الفرنسية محل العربية ، والثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية ـ الإسلامية ، لتصبح تلك البلاد جزءا لا يتجزأ منها .

لقد كان ردّ الفعل فى المشرق العربى غيره فى المغرب العربى . ففى الأول كانت الخطة أكثر اعتدالا . وكانت تركيا ما تزال تحكم البلاد وتراقب ما يجرى فيها عن كثب . وكانت الطوائف المسيحية تتجاوب مع الغرب المسيحى

دون أن تتولد فيها عقد الشعور بالنقص . وكان الغرب رؤوفا بهذه الطوائف يصانعها من تلقاء نفسه حيناً ، و بحكم المنافسة بين دوله حيناً آخر . أما المغرب العربى فقد ظل يواجه سياسة صارمة مناهضة لتراثه وآماله حتى كادت الفرنسية تحل محل العربية فى معظم المنطقة[١] .

— ٢ —

وظهر مصلحون فى الدولة العثمانية حملوا ثلاثة من سلاطين آل عثمان هم سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) ومحمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) وعبد المجيد الأول (١٨٣٩ — ١٨٦١) على إجراء إصلاح داخلى على الأسس الأوربية . بدأ الأول بإصلاح الجيش وتنظيم الدولة . وأصدر الثانى « فرماناً شاهانياً » سنة ١٨٢٦ بعد القضاء المبرم على الانكشارية الذين حالوا دون تنفيذ ما أراد الأول . وتمكن من إزالة (القرمانلية) فى طرابلس و (البشاوات المماليك) فى بغداد و (أمراء الوادى) فى الأناضول ، وقضى على الاحتكار وادعاءات أصحاب العصبيات المكتسبة فى الدولة[٢] . وأصدر الثالث العهد المشهور بـ « كلخانة » سنة ١٨٣٩ قرر فيه ضمان الروح والعرض والمال لرعاياه . وأصدر سنة ١٨٥٦ منشور « التنظيمات الخيرية » مؤكداً ما ورد فى العهد السابق مع إضافة مبدأ معاملة جميع تبعة الدولة معاملة متساوية ، ومنح الطوائف الدينية مجالس تستقل بالأحوال الشخصية و إدارة الأوقاف والمدارس والمؤسسات الخاصة بها ، ووضع القوانين التى تهدف إلى جعل الدولة « عصرية » .

« أضحى عهد التنظيمات بداية تقدم فى الدولة العثمانية من جميع النواحى

---

(١) انظر الحركة الأدبية والفكرية فى تونس لابن عاشور ص ٨٢ ، والمغرب العربى لعلال الفاسى ص ٣٦ ـ ٤٣ القاهرة ١٩٥٥

(٢) تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص ٣٠٤ ط ٢ القاهرة ١٨٩٦

الحكومية والثقافية والأدبية . وأخذت الدول الأوربية تتنافس فى توسيع نفوذها فى البلاد العثمانية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها . كانت المدارس الأجنبية تؤسس فى القرى المسيحية والمدن التى يكثر فيها المسيحيون . وحصة الولايات العربية من هذه المدارس والنفوذ الغربى كانت كبيرة ، ولا سيا فى حلب والموصل وبيروت والقدس ولبنان . ووجد تعليم الأدب العربى واللغة العربية موئلا فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، فانتشر تعليم الأدب العربى بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين ، لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم بل ظلوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الحكومية . ولغة التعليم فيها التركية »[١] .

ثم ظهر مدحت باشا (١٨٢٠ — ١٨٨٣) المصلح العظيم ونهض بأعباء الحكم على خير وجه . وفى رياسته وبمسعاه أصدر السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٤٢ — ١٩١٨) القانون الأساسى سنة ١٨٧٦ . وحين ولى العراق سنة ١٨٦٩ قام فى أثناء السنوات الثلاث بإصلاحات واسعة لم تعهدها البلاد من قبل . ألف مجلساً للشورى ، ووطد الأمن والنظام ، ومد البرق ، ونظم البريد ومهد طرق المواصلات ، وأنشأ المدارس العسكرية والأولية ، وأسس معملا للنسيج ، ونصب جسراً على دجلة ، وأسس مدينتى الناصرية والرمادى . وفى حقل الثقافة بنى مدرستين ثانويتين ، وأسس إدارة للمعارف ، وجلب إلى بغداد من باريس مطبعة آلية ، وأصدر جريدة الزوراء بالعربية والتركية ـ وهى أول جريدة رسمية فيه ـ سنة ١٨٦٩ ، وعمرت بعده ٤٧ سنة ، وأكرم العلماء والأدباء ، فأشادوا بأعماله ، وعطروا دواوينهم بشعره[٢] . وحين ولى بلاد الشام سنة ١٨٧٨ أنشأ

(١) انظر البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى ص ٨٠ ـ ٨٣ القاهرة ١٩٥٧ .

(٢) انظر زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٥٣ القاهرة ١٩٤٨ ، والصحافة فى العراق لرفائيل بطى ص ١١ ـ ١٥ القاهرة ١٩٥٥ ، والشعر العراقى الحديث لعبد الكريم الدجيلى ص ١٣ ـ ١٥ القاهرة ١٩٥٩ .

مدارس كثيرة للبنين والبنات مستعنيا بأموال الأوقاف ، وأسس الجمعيات وعلى رأسها (جمعية المقاصد الخيرية) وأضحى هو والفئة التي جمعها من حوله قطب حركة التمدن [١] .

وقامت في تونس حركة مماثلة للتنظيمات الخيرية مُهّدت لها بالإصلاح الذي أنجزه المشير أحمد باشا في أثناء ولايته التي استمرت تسعة عشر عاما ابتداء من سنة ١٨٣٨ ، وكان من أبرز منفذيه المصلح خير الدين باشا (١٨١٠ ـ ١٨٩٠) . زار أحمد باشا فرنسا سنة ١٨٤٦ مصطحبا الكثير من وزرائه وقواده ورجال حاشيته ، « ففتحوا أعينهم على حياة باريس الباهرة ونظمها وحضارتها ، ورجعوا مبهوتين ، يفيضون من الأحاديث ما أصبح في الحياة الشعبية مادة للكتب والأساطير ، وأصبح في الحياة الفكرية توجيهاً لحركة الإصلاح وطابعا لتطور الأدب الراقي » [٢] .

ثم خلفه المشير محمد باشا الذي أصدر « عهد الأمان » سنة ١٨٥٧ في تنظيم البلاد ماليًا وإداريا وعمرانيًا ، أسوة بالتنظيمات الخيرية . وبعد ثلاث سنوات خلفه المشير محمد الصادق وأضحى خير الدين الزعيم المطلق والمنفذ الأول لجميع الإصلاحات التي تمت في هذا الطور . عمل على تنظيم الحكم والإدارة ، فكان العقل المنظم للحياة النيابية المستحدثة ، وصاحب الحظ الأكبر في وضع القوانين لمجلس الشورى ؛ وأنشأ المدرسة الصادقية سنة ١٨٧٤ موسعا دائرة التعليم العربي الديني بتعليم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية ؛ ونظم التعليم الزيتوني ، وجمع الكتب المبعثرة في المساجد وكون منها مكتبة « العبدلية » ، وحسن مطبعة الدولة ووكل إليها نشر الكتب العلمية والأدبية ، وأصلح إدارة (الرائد التونسي) وهي

---

(١) زعماء الإصلاح ص ٥٥ ، والقصة في سورية لشاكر مصطفى ص ١٠ ـ ١٢ ـ القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) الحركة الأدبية والفكرية في تونس لابن عاشور ص ١٨ القاهرة ١٩٥٦ .

الصحيفة الرسمية للحكومة ، وأصبح صدورها منظما وموضوعاتها متنوعة ، ليست مقصورة على الأخبار وإنما هى منابر للخطابة[1] .

وواكبت مصر تركيا وتونس فى الحركة الإصلاحية ، مستهدفة البعد عن السيطرة العثمانية ، شأنها كشأن تونس ، ومستهدية بالحياة الغربية ـ لاسيما فى عهد اسماعيل باشا ـ . وفى الوقت نفسه سعى قادتها إلى تقييد الحكم المطلق بالشورى ، وتعريب الجيش ، والأخذ بأسباب العمران الحديثة كأنشاء المدارس النظامية ، ودور الكتب ، وتنشيط الجمعيات والصحف والمسارح وأحياء التراث القديم . وتولى هذه النواحى عدد من المصلحين العسكريين والإداريين والدينيين كأحمد عرابى ، وعلى مبارك ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، وعبد الله فكرى ، واسماعيل الفلكى ، وسامى البارودى ، ومحمد عبده وسواهم ممن نبغ فى عهد محمد على واسماعيل وتوفيق . وقد رد عباس محمود العقاد حركة البعث فى الشعر العربى فى مصر إلى ثورة عرابى[2] التى قامت سنة ١٨٨١ . أما رفاعة الطهطاوى فهو باجماع الباحثين رائد النهضة الأدبية الحديثة فى مصر . وكتابه « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » ـ القاهرة ١٨٣٤ ـ الذى دون فيه ملاحظاته فى أثناء إقامته فى باريس ينم عن عقلية متفتحة واعية مواطن القوة والضعف فى الحضارتين الغربية والعربية فى ذلك الوقت ، وضرورة تلقيح الفكر العربى بالعناصر الخيرة من الفكر الغربى . وقد تركت هذه الرحلة وأمثالها أثراً فى المتطلعين إلى حياة أرقى من حياتهم . ونسج على منوالها أحمد بن أبى الضياف الذى رافق أحمد باشا ـ باى تونس ـ فى رحلته إلى فرنسا سنة ١٨٤٦ مدونا ملاحظاته ومشاهداته[3]

---

(١) زعماء الإصلاح ص ١٦٨ ـ ١٦٩ والحركة الأدبية والفكرية فى تونس لابن عاشور ص ١٨ ـ ٢٨ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٨ القاهرة ١٩٢٧ .

(٣) الحركة الأدبية والفكرية فى تونس لابن عاشور ص ١٨ .

وربما ماثلها كتاب «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» ـ تونس ١٨٦٧ـ لخير الدين باشا إذ وصف أحوال الدول الأوربية العشرين التى فصّل عليها الكتاب ، وبحث أسباب تأخر العالم الإسلامى ووسائل نهضته ، وبين ما كان لانتشار المعارف فى أوربا وخاصة فى فرنسا من أثر فى سعادة الأمة ، وحقيقة الملك والحرية والشورى والمسئولية الوزارية[١]، وغير ذلك من الأمور التى سبق إليها رفاعة الطهطاوى . وسلك هذا المسلك محمد السنوسى فى كتابه « الرحلة الحجازية » إذ أفرد جزءا منه للكلام على إيطاليا وما وقف عليه من صميم الحياة الغربية[٢] .

وأكبر مصلح فى ذلك العصر هو جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) « ولعلّ أخصب زمنه وأنفع أيامه وأصلح غرسه ما كان فى مصر مدة إقامته بها من مارس ١٨٧١ إلى أغسطس ١٨٧٩ . ثمانى سنوات كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقى . لأنه فيها كان يدفن فى الأرض بذوراً تتهيأ فى الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الإزدهار ، فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموها »[٣] . لقد أحدث الأفغانى انقلابا فى الحياة السياسية والفكرية . فإليه يرجع الفضل فى قيام الحركة الدستورية فى تركيا ومصر وإيران . وهو الذى هيأ النفوس وأعد الأذهان للثورة العرابية ولما تلاها[٤] . وهو الذى وسع آفاق التفكير بتوجيهه إلى العناية بالعلوم الحديثة . وهو الذى حول مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال ، وشجع على انشاء الجرائد وسخر الأدب لخدمة الشعب

---

(١) السابق ص ٢٢ .
(٢) السابق ص ٣٥ .
(٣) زعماء الإصلاح ص ٦٢ .
(٤) أحاديث المازنى ، بقلم إبراهيم عبد القادر المازنى ص ١٠٢ القاهرة ١٩٦١ .

وحرره من عبودية الارستقراطية ، وأوحى بالمعانى الجديدة[1] .

واضح أن هؤلاء المصلحين جميعا تأثروا بما قرأوه أو شاهدوه من نظم الحكم الدستورى التى توطدت فى بعض الدول الأوربية ، وكانت عاملا من أبرز عوامل نهضتها وتفوقها . ولا شك فى أن تاريخ الثورة الفرنسية قد استرعى انتباههم وحفز هممهم للاصلاح . ومن جهة أخرى كانت نهضة اليابان زمن الأمبراطور ميجى (١٨٦٨ — ١٩١٢) وهزيمتها روسيا سنة ١٩٠٤ موضع التأمل ، وحافزا على إعادة التجربة فى بلاد الشرق ، بعد أن ثبت بالدليل المادى أن أممه قادرة على اللحاق بالغرب ومنافسته . على أن التحدى الغربى الذى تجسم فى غزوة نابليون ، وفى احتلال الجزائر وتونس ومصر والمغرب ، وفى هزائم الدولة العثمانية وتمرد أطرافها عليها ، ووصول جيش مصر بقيادة ابراهيم باشا إلى الأناضول ـ بعد أن نظم على وفق الجيوش الغربية ـ كان الباعث الأكبر لنزعات الاصلاح . لقد كان مقصد أولئك المصلحين تحرير الفرد من طغيان الحكم الاستبدادى ، وتحقيق الحرية والعدل والمساواة بين أبناء الوطن ، وأخيرا الفكاك من قبضة السيطرة الأجنبية التى أحكمت ببراعة ومقدرة . ومع أن هذه الحركات جميعا ما لبثت أن نقضت أو تراخت إلا أنها كانت مرحلة فى تطور العرب لا بد منها ، و بقى فى التربة منها بذور خيرة تفتحت فيما بعد .

— ٣ —

وفى هذا العصر نشطت الارساليات الأجنبية فى فتح المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، ولا سيما بعد الفتح المصرى لسوريا ولبنان سنة ١٨٣١ . فأنشأ اليسوعيون مدرسة كبيرة فى غزير سنة ١٨٤٣ . وأنشأت الارساليات

(١) انظر زعماء الإصلاح ص ٦٧ ، ٦٩ ، وقصة حياتى لأحمد لطفى السيد كتاب الهلال ، ص ٣٣ القاهرة ١٩٦٢ .

الانجيلية الأمريكية مدرسة فى عبيه سنة ١٨٤٨ نقلتها إلى بيروت سنة ١٨٦٦ باسم « الـكلية السورية الانجيلية » ، وأضحت سنـة ١٩٢٠ « الجامعة الأمريكية » . وحذا اليسوعيون حذوها فنقلوا مدرسة غزير إلى بيروت سنه ١٨٧٥ باسم « كليه القديس يوسف » . وبلغ عـدد المدارس التى أنشأها الأمريكان سنة ١٨٦٠ ثلاثا وثلاثين مدرسة[١] .وكانت الـكليه السورية الانجيلية تدرس العلوم بالعربية منذ أنشائها إلى سنة ١٨٨٠ . ومن كبار أساتذتها الذين ألفوا بالعربية كرنيليوس فانديك ، وجورج بوست ، ويوحنا وربتات . ومن مؤلفات الأول بالعربية ٣ كتب فى الطب ، ٣ فى الرياضيات ، وكتابان فى الفلك ، و ٤ فى الطبيعيات والـكيمياء و ٥ فى الجغرافيا والتاريخ و ٦ فى اللغة[٢] ومن مؤلفات الثانى ٣ فى الطب و ٣ فى التاريخ الطبيعى و٣ فى الدين [٣] . ومن مؤلفات الثالث ٥ فى الطب وكتاب فى الأدب وكتاب فى الدين ، ومعجمان من العربية إلى الانجليزية [٤] وقد درس فانديك العربية على الشيخ ناصيف اليازجى وبطرس البستانى ويوسف الأسـير . واستعان بوست فى ضبط لغته بالمعلم بطرس البستانى .

ونشأت المدارس الخاصة على أسس حديثة ، منها مدرسة (عين تريز) سنة ١٨١١ ، ومدرسة (مار عبدا) سنة ١٨٣٠ ، ومدرسة (ريفون) سنة ١٨٣٢ ، وفيها تخرج ناصيف اليازجى وبطرس البستانى وأحمد فارس الشدياق ، والمدرسة (الوطنية) لبطرس البستانى سنة ١٨٦٣ ، ومدرسة (الثلاثة الأقمار) للروم الأرثوذكس سنة ١٨٦٥ ، والمدرسة البطريركية للروم الـكاثوليك سنة

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٤/٢٩ .

(٢) السابق ٤/١٩٨ ـ ١٩٨ ، والأداب العربية فى القرن التاسع عشر للويس شيخوج ٢/١٨٠ بيروت ١٩٢٦ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٤/١٩٩ .

(٤) السابق ٤/١٩٨ .

١٨٦٥ ، ومدرسة (الحكمة) للطائفة المارونية سنة ١٨٧٦ ، ومدرسة (المقاصد الخيرية) للمسلمين سنة ١٨٨٠ ، والكلية العثمانة سنة ١٩٠٠ .

وسارت الارساليات الأجنبية الأخرى ، من انكليزية وألمانية وروسية وايطالية على نهج الارساليتين السابقتين . وتجدر الاشارة إلى مدارس (الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية) الروسية التى أسست سنة ١٨٨٢ وظلت إلى بداية الحرب العالمية الأولى حين أغلقها الحلفاء . ذلك أنها أدخلت لونا خاصا من التعليم والثقافة يخالف اللونين اللاتينى والأنجلوسكسونى. أسست هذه الجمعية دار اللمعلمين فى الناصرة (فلسطين) تخرج فيها عدد من الأدباء ، منهم القصصى خليل بيدس وتلميذه النابه ميخائيل نعيمة والصحفى سليم قبعين . وأسست مدرسة للبنات فى بيت جالا (فلسطين) . ثم كثرت مدارسها حتى بلغت نحو مائة مدرسة فى سوريا ولبنان . وقد أدخل خريجو هذه المدارس الأدب الروسى إلى البلاد العربية بما ترجموه منها من قصص وروايات وسير و بما كتبوه عن أدباء الروس . ومن أشهر مدارس الارساليات الأجنبية فى فلسطين مدرسة (صهيون) الانجليزية المؤسسة سنة ١٨٥١ وفيها تخرج ضياء الدين باشا الخالدى من رواد النهضة الأدبية ، وخليل السكاكينى .

ونشطت الارساليات الدينية فى مصر فانشأت عددا كبيرا من المدارس فى القاهرة والأقاليم ، وكانت معظمها للطائفة الكاثوليكية ، كالآباء العازاريين سنة ١٨٤٤ ، والفرير سنة ١٨٤٥ ، وأخوية الراعى الصالح سنة ١٨٤٦ ، والفرنسسكان سنة ١٨٥٩ ثم تبعتها مدارس الطائفة البروتستانتية من انجليز وأمريكان وألمان ، ولكنها لم تبلغ شأوها فى العدد والاقبال ، وأسست الجاليات الأجنبية من يونانية وأرمنية وايطالية مدارس خاصة تعلم بلغتها .

ومع أن هذه المدارس جميعها كانت ذوات أهداف دينية أوطائفية ، وكانت وسيلة من وسائل تقسيم المجتمع إلى وحدات ثقافية مختلفة ، إلا أنها ملأت فراغا

فى البلاد العربية ، ووضعت أنماطاً للمدارس الحديثة ، وأدخلت اللغات الأجنبية ، وفتحت نوافذ على الفكر الغربى ، وحفزت الحكومات على تطوير التعليم من الكتاتيب إلى المدارس النظامية . وكان أعظمها أثراً فى حياة العرب المدارس الفنية ككليات الطب والهندسة والصيدلة والحقوق والمعلمين . ففيها تخرج عدد كبير من رجال الفكر والمهن الحرة والقادة السياسيين . وحين نشأت المعاهد العالية والجامعات العربية فى النصف الأول من القرن العشرين اقتفت إثر هذه الأنماط السابقة وأفادت كثيرا من مناهجها وأساليبها .

وطعّمت هذه المدارس الأدب العربى بما أدخلت من علوم حديثة وبما قدمت من ألوان أدبية جديدة ، وبما أعدت من مترجمين . إلا أن التجديد الحق لم يتم إلا على أيدى المثقفين الذين جمعوا بين الثقافتين العربية والغربية ، ووعوا مجتمعهم وعيا عميقا ، وتميزوا بالأصالة ، وخرجوا من المزج بلون استساغه المجتمع . وبدأ هذا التجديد أفراد فى القرن التاسع عشر كأحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوى وبطرس البستانى ومارون النقاش ومحمود سامى البارودى وروحى الخالدى ، ولكنه لم يؤت ثماراً يانعة إلا فى القرن العشرين ، بعد أن تحررت النفس العربية من التقليد ، ووعت ذاتها وبيئتها ، واطلعت على تراثها القديم الفذ ، وأحسنت الافادة من العلوم والآداب الانسانية .

— ٤ —

كان من آثار احتكاك العرب بالغرب ، وفتح المدارس الأجنبية ، أن أدرك العرب أن بين ثقافتهم القديمة التى انتهوا إليها والثقافة الغربية الحديثة هوة سحيقة نتجت عن أربعة قرون من التخلف الحضرى والعلمى . ولذا بادروا إلى إقامة جسر بين القديم والحديث قوامه ترجمة العلوم والآداب .

وسارت الترجمة على وفق حاجة البلاد ومطالبها الأولية . فى مصر اتجهت

العناية أولا إلى ترجمة العلوم العسكرية والهندسية والطبية . وكانت معظم الكتب الغربية تترجم إلى التركية ليفيد منها ضباط الجيش من الأتراك .

وفى عهد محمد على ترجم ٥٩ كتابا فى العلوم العسكرية إلى التركيه ، بينما ترجمت ٩ كتب إلى العربية . ولكى يحذق المترجمون الترجمة أنشئت مدرسة الألسن سنة ١٨٣٥ . ثم انشىء قسم خاص بالترجمة سنة ١٨٤١ . وانشىء فى كل مدرسة مكتبة للانتفاع بالكتب المترجمة . وبلغ عدد الكتب المترجمة زمن محمد على ١٥٠ كتابا ، منها ٤٤ كتابا فى الطب البشرى ، و ٢٦ فى الرياضة و ١٩ فى التاريخ و ١٥ فى الطب البيطرى و ١١ فى الجغرافيا و ١٠ فى الإدارة و ٩ فى العلوم العسكرية[١] . ولكى يتولى الترجمة أبناء البلاد أرسلت البعثات إلى أوربا . وبلغ عددهم زمن محمد على ٣١٩ طالبا ، أشهرهم رفاعة الطهطاوى الذى تولى رئاسة مدرسة الالسن ، وترجم مع طلابه نحو ٢٠٠٠ كتاب ورسالة فى موضوعات مختلفة[٢] .

ثم زادت العناية بالكتب الأوربية . ففى زمن أسماعيل ترجم ٨٣ كتابا ، منها ١٦ فى العلوم العسكرية و ١٣ فى الأدب و ١١ فى العلوم الرياضية و ١٠ فى التاريخ . ويذكر أحد المؤرخين أن الترجمة ازدهرت ما بين سنه ١٨٨٠ — ١٨٩٩

---

(١) استخرجت هذه الأرقام من الكتب التى أرخت الترجمة فى مصر ، ومن البدهى أنها تقريبية . راجع (١) حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر لجاك تاجر ، القاهرة ١٩٤٥ (٢) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، لجمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥١ (٣) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ لكلوت بك القاهرة ١٨٤٠ (٤) تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل لالياس الأيوبى القاهرة ١٩٢٣ (٦) تاريخ الحركه القومية فى عصر محمد على ج٣ لعبد الرحمن الرافعى القاهرة ١٩٣٧ (٧) تاريخ التعليم فى عصر محمد على لأحمد عزت عبد الكريم القاهرة ١٩٣٨ (٨) تاريخ الطباعة فى الشرق العربى لخليل صابات القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) انظر Jamâl Moh . Ahmad, The Intellectual origins of Egyptian Nationalism, p. 10, Landon 1960 .
والاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث لأنيس الخورى المقدسى ص ٣٦٩ بيروت ١٩٦٠ .

ازدهارا لا مثيل له من قبل ، وأن نصيب الأدب منها كان نحو الثلث[1] .
ومن أبرز المترجمين رفاعة الطهطاوى والسيد صالح مجدى وعبد الله أبو السعود وأحمد عبيد الطهطاوى ومحمد عثمان جلال ونجيب الحداد . والأخيران كانا أكثر عناية بالأدب القصصى .

أما لبنان ، القاعدة الرئيسية لحركة البعث فى بلاد الشام ، فقد عنى بترجمة الكتب الدينية عن الفرنسية والإيطالية واللاتينية والأسبانية . وأظهر رجال الدين المسيحى نشاطا فذا إذ بلغ ما ترجموه مئات الكتب . ثم انتقلت الترجمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى مرحلة جديدة بسبب تأسيس كليتى الأمريكان واليسوعيين . ومعظم الكتب التى وضعها أساتذة الكلية الأمريكية فى علوم الطب والكيمياء والجغرافيا والنبات مترجمة من اللغة الإنجليزية[2] .
وظهرت أيضا عناية بترجمة المسرحيات والقصص إثر ظهور المسرح فى لبنان ومصر وانتشار المجلات . على أنها كانت ترجمة حرة واقتباسا . بدأ ذلك مارون النقاش رائد المسرح العربى . وسار على نهجه يعقوب صنوع وأديب اسحق ونجيب الحداد ومحمد عثمان جلال وخليل اليازجى .

وأما الصحف فسنت سنة جديدة بنشر القصص المؤلفة والمترجمة فى اعدادها ، كحديقة الأخبار سنة (١٨٥٨) والبشير (١٨٧٠) والجنان (١٨٧٠) والضياء (١٨٩٨) والمشرق (١٨٩٨)[3] .

ومع أن الترجمة فتحت آفاقاً واسعة ووضعت أمام القراء أنماطاً أدبية جديدة إلا أن أثرها لم يكن عميقاً لتفشى الأمية وعدم التزام الدقة فى الترجمة

---

(١) حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر لجاك تاجر ص ١١٣ القاهرة ١٩٤٥ .
(٢) انظر تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر لجرجى زيدان ج ٢ / ٢٣٥ القاهرة سنة ١٩٢٢ [ترجمة الدكتور يوحنا ورتبات ص ٢٣٢ ـ ٢٣٧ ، وترجمة الدكتور جورج بوست ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢] .
(٣) انظر القصة فى الأدب العربى الحديث لمحمد يوسف نجم ص ٦٥ ، القاهرة ١٩٥٢ .

وفقدان التوجيه من قبل الهيئات الحكومية . على أنها سمات طبيعية للبداية والتمهيد .

— ٥ —

سبق لبنان سائر البلاد العربية فى استعمال المطابع . ففى سنة ١٦١٠ أحضر رهبان الطائفة المارونية من روما مطبعة أقاموها فى (دير قزحيا) – جنوبى طرابلس – وطبعوا فيها كتباً دينية عربية بحروف سريانية (الكرشونى) .

وأنشئت أول مطبعة عربية فى حلب سنة ١٧٠٦ أحضرها رجال الدين المسيحى من أوربا . ثم تلتها مطبعة (دير يوحنا) بالشوير سنة ١٧٣٣ ، فطبعة (دير القديس جاورجيوس) ببيروت سنة ١٧٥١ . ومعظم مطبوعاتها دينية .

ودخلت الطباعة العربية الآستانة سنة ١٧٢٧ ثم سنة ١٨١٦ . وفى الأولى سمح لها بطبع الكتب العلمية . وفى الثانية عنيت بالتراث الإسلامى من تاريخ وفقه ولغة وأدب . على أن مطبعة الجوائب لأحمد فارس الشدياق التى أسسها سنة ١٨٧٠ تميزت بطبع نفائس الكتب العربية القديمة التى كانت تزخر بها مكتبات الآستانة .

وفى سنة ١٨٣٤ نقلت الإرسالية الأمريكية مطبعتها من مالطة إلى بيروت ، وتفردت بطبع الكتب المدرسية مدة أربعين سنة . وأسهمت معها فى ذلك فيما بعد مطابع البستانى وسركيس والمقتطف وثمرات الفنون وصادر .

وفى سنة ١٨٤٨ أنشأ اليسوعيون مطبعتهم فى بيروت منافسين الأمريكان . وبفضل هاتين المطبعتين كثرت المطابع الأهلية .

ودخلت المطابع مصر مع الحملة الفرنسية . وكانت المطبعة الأهلية Imp. Nationale المؤسسة سنة ١٧٩٨ أكثرها نشاطاً . وأنشأ محمد على مطبعة

بولاق سنة ١٨٢٠ لطبع الكتب المتعلقة بالجيش . و بعد تأسيس المدارس عنيت هذه المطبعة بطبع الكتب المدرسية إلى أن ضاقت بحاجة الجيش والدواوين والمدارس ، فانشىء إلى جانبها عدد من المطابع الحكومية ، كمطبعة مدرسة الطب بأبى زعبل سنة ١٨٢٧ ومطبعة مدرسة الطوبجية بطرة سنة ١٨٣١ ومطبعة الوقائع المصرية سنة ١٨٣٣ . ومرت مطبعة بولاق بمراحل كانت أنشطها زمن اسماعيل باشا حين أدخلت الآلات البخارية وجددت الحروف وادخلت صناعة التجليد . وتمتاز مطبعة بولاق بالدقة والإتقان . وقد أسهمت فى إحياء التراث الإسلامى العربى خير اسهام .

وفى منتصف القرن التاسع عشر أنشئت المطابع الخاصة كمطبعة قدرى باشا ناظر المعارف ، ومطبعة وادى النيل لعبد الله أبى السعود ، ومطبعة جمعية المعارف لمحمد عارف ، ومطبعة المعارف لإبراهيم المويلحى .

وأنشأت الآرساليات الدينية عددا من المطابع فى فلسطين فى منتصف هذا القرن ، كمطبعة الآباء الفرنسسكان سنة ١٨٤٧ ومطبعة دير الروم الارثوذكس سنة ١٨٥١ ومطبعة دير الأرمن سنة ١٨٦٦ . ولكنها عنيت بالكتب الدينية أولا ثم بالكتب المدرسية والعلمية[١] .

— ٦ —

أثرت الطباعة فى ثلاثة مجالات : الأول نشر التراث العربى القديم .

---

(١) انظر فى تاريخ الطباعة (١) مجلة المشرق سنتى ١٨٩٩ و ١٩٠٠ (٢) ولاية بيروت لمحمد رفيق التميمى ، بيروت ١٩١٦ (٣) الآداب العربية للويس شيخو بيروت ١٩٢٤ (٤) أصدق ما كان عن تاريخ لبنان لفيليب دى طرازى بيروت ١٩٤٨ (٥) تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر فى خلال الحملة الفرنسية لإبراهيم عبده القاهرة ١٩٤٩ (٦) تاريخ مطبعة بولاق لابى الفتوح رضوان ، القاهرة ١٩٥٣ (٧) تاريخ الطباعة فى الشرق العربى لخليل صابات القاهرة ١٩٥٨ .

والثانى ظهور الصحف من جرائد ومجلات . والثالث انتشار الكتاب العربى .

تركزت حركة نشر التراث فى مدينتين هما الآستانة والقاهرة لما احتوتا من خزائن كتب غنية بالمخطوطات ، ولأنهما كبريا المدن الإسلامية ، ولتميزها بالطاقة المادية، ولازدحامهما بالعلماء المتمكنين من اللغة وعلومها والدين وفروعه . ولذا طبع فى هذين البلدين عدد كبير من أمهات كتب اللغة والأدب والعلوم الإسلامية . وتولى التصحيح والتحقيق عدد من العلماء الذين أنجبهم الأزهر كأبى الوفاء نصر الهورينى المتوفى سنة ١٨٧٤ ومحمد محمود الشنقيطى الذى أرسله السلطان عبد الحميد إلى أسبانيا للبحث عن الكتب العربية وتولى تصحيح عدد من أمهات الكتب وتوفى سنة ١٩٠٤ ، وإبراهيم المويلحى أحد مؤسسى جمعية المعارف ومطبعتها والمتوفى سنة ١٩٠٥ . وربما بزهم جميعا أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة ١٨٨٨ والذى أغنى المكتبة العربية بعدد ضخم من أمهات الكتب القديمة ، شرقت وغربت مع جريدته الجوائب . وقد اسهم علماء الاستشراق فى هذا المجال بجهود حميدة من حيث الكم والكيف وعلى رأس هؤلاء البارون دى ساسى **Baron S. de Sasy** وهمكر **H. A. Hamaker** وكاترمير **Et. Quatremére** وفريتاغ **G.W. Freytag** وهمر **J. D. Hammer Purgstall** وفون كريمر **Aefred Von Kremer** ودوزى **R. Dozy** ووليم رايت **W. Wright** وأدوارد لين **E. W. Lane** وغيرهم من مختلف الأمم الأوربية[1] .

وأثر نشر الكتب القديمة أعمق الأثر فى حياة العرب الفكرية والأدبية والنفسية ، إذ ربط حاضرهم بماضيهم ، وأشعرهم بمجدهم التليد ، وقوى مشاعرهم القومية ، ووضع أمامهم أنماطاً من أدب العرب تمثل الذروة فى نتاجهم الأدبى ،

---

١ انظر الآداب العربية فى القرن التاسع : للويس شيخو ج١/٦٨ ، ٧٢ ، ١١٥، ١١٨ ، ١٢٢ ، ج٢ ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، بيروت ١٩٢٤ ، ١٩٢٦ .

وأحدث تعادلا فى عقولهم ونفوسهم فى وقت كانت فيه النفوس مهيأة للانحراف بالتيار الغربى وذوبان الشخصية ، وملأ نفوسهم بالأمل والاعتزاز بالقديم ، وأعاد إلى أسلوبهم القوة والانطلاق

أما الصحافة فقد عرفها العرب بوساطة الحملة الفرنسية التى أصدرت سنة ١٧٩٩ نشرة عربية حررها اسماعيل الخشاب وكانت خاصة بأمور الجيش . وبعد أن تولى محمد على الحكم أصدر سنة ١٨٢٨ « الوقائع المصرية » محررة بالتركية والعربية ثم غلبت عليها العربية[١] . وتولى تحريرها رفاعة الطهطاوى وأدخل الأسلوب المنمق . وحين تولى تحريرها محمد عبده سنة ١٨٨٠ وسع نطاق موضوعاتها وعنى بتهذيب لغتها وأشرك عدداً من الكتاب الممتازين فى تحريرها . وغدت « الوقائع المصرية » المثال المحتذى للصحافة الرسمية فى العالم العربى .

وأصدر رزق الله حسون الحلبى سنة ١٨٥٥ جريدة « مرآة الأحوال » فى الآستانة ، فكانت أول جريدة عربية خاصة . وتلتها سنة ١٨٥٧ جريدة « السلطنة » لاسكندر شلهوب . وأصدر المرسلون الامريكيون فى بيروت مجلة « مجموع فوائد » سنة ١٨٥١ يحررها عالى سمث . واتبعوها سنة ١٨٦٣ بصحيفة مصورة اسمها « أخبار عن انتشار الانجيل » يحررها الدكتور كرنيليوس فانديك . وأنشأ خليل الخورى فى بيروت جريدة « حديقة الأخبار » سنة ١٨٥٨ فكانت أول جريدة عربية خارج الآستانة وعمرت نحو نصف قرن[٢] .

---

(١) نشأة النثر الحديث وتطورة لعمر الدسوقى ص ٤٩ القاهرة ١٩٦١ .

(٢) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ، ٢ للكونت فيليب طرازى ، بيروت ١٩١٣ ، وتاريخ تكوين الصحف المصرية لقسطاكى الياس عطارة ، القاهرة ١٩٢٨ وانظر الكشف الذى أثبته محمد يوسف نجم فى (القصة فى الأدب العربى الحديث) ص ٣٨ ـ ٤١ ، القاهرة ١٩٥٢ ، والكشف الذى أثبته كمال اليارجى فى (الشيخ إبراهيم الحورانى) ص ٣٩ ـ ٥٤ القاهرة ١٩٦١ .

وتوالى صدور الصحف فى حواضر العالم العربى . فصدرت « الرائد التونسى » سنة ١٨٦١ وازدهرت زمن وزارة خير الدين باشا ، وعنيت بالأدب والسياسة والاجتماع ، مقتفية إثر « الجوائب » وناقلة عنها أحيانا[١] .

وصدرت جريدة « سورية » الرسمية فى دمشق سنة ١٨٦٥ ، وجريدة « فرات » فى حلب سنة ١٨٦٧[٢] .

وصدرت جريدة « الزوراء » فى بغداد سنة ١٨٦٩ بالعربية والتركية بإدارة المصلح مدحت باشا ، وظلت تصدر نحو نصف قرن[٣] .

وصدرت جريدة « الحجاز » فى مكة سنة ١٨٨٣ بالعربية والتركية واستمرت إلى سنة ١٩١٥[٤] .

ثم تعاقب صدور الصحف ، فى سير متعثر ، بعضها يعمر عاما وبعضها أكثر من عام ، حسب الظروف ورضى الدولة العثمانية . وكانت المدة ما بين ١٨٧٠ – ١٩٠٠ حافلة بالعدد الكبير[٥] .

ومن الصحف التى ظفرت بالشهرة والذيوع والنفوذ « الجوائب » لأحمد فارس الشدياق . ظلت تصدر فى الآستانة من سنة ١٨٦١ – ١٨٨٤ ، معنية بالشئون السياسية والأدبية والفكرية ، ظافرة بما لم تظفر به جريدة فى ذلك العهد من انتشار ونفوذ . ولا عجب أن لقبه مارون عبود بأبى الجريدة المثلى الجامعة للأدب والسياسة والعلم[٦] . ومثلها جريدة « الأهرام » التى صدرت سنة ١٨٧٦

---

(١) الحركة الأدبية والفكرية فى تونس لابن عاشور ص ٢٧ .
(٢) القصة فى سوريا لشاكر مصطفى ص ٢٨ – ٢٩ .
(٣) الصحافة فى العراق لرفائيل بطى ١٤ – ١٥ .
(٤) التيارات الأدبية الحديثة فى قلب الجزيرة العربية لعبد الله عبد الجبار ص ١٥٥ القاهرة ١٩٥٩ .
(٥) الشيخ إبراهيم الحورانى لليازجى ص ٤٩ .
(٦) رواد النهضة ص ١٥٦ بيروت ١٩٥٢ .

فى الاسكندرية فالقاهرة . وهى أطول الجرائد العربية عمراً . وقد فتحت صدرها للموضوعات الاجتماعية والسياسية والأدبية مع عناية خاصة بفن الخبر . وفيها ظهرت بواكير محمد عبده .

وصدرت فى هذا العصر أوائل المجلات كالجنان لبطرس البستانى سنة ١٨٧٠ فى بيروت والمقتطف ليعقوب صروف وفارس نمر سنة ١٨٧٦ / ١٨٨٥ فى بيروت فالقاهرة ، وروضة المدارس لعلى مبارك سنة ١٨٧٠ فى القاهرة ، والعروة الوثقى لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده سنة ١٨٨٤ فى باريس ، وكانت ذات نفوذ واسع فى العالمين الاسلامى والعربى لدعوتها إلى الوحدة الاسلامية وتحرير الوطن من الاستعمار والاستبداد بأسلوب نارى[١] ، والهلال لجرجى زيدان سنة ١٨٩٢ فى القاهرة ، والضياء لابراهيم اليازجى سنة ١٨٩٨ فى القاهرة والمشرق للأب لويس شيخو سنة ١٨٩٨ فى بيروت .

وأسهمت المرأة فى هذا الميدان ، فأصدرت هند نوفل مجلة « الفتاة » سنة ١٨٩٢ فى القاهرة ، ولويزا حبالين « الفردوس » فى القاهرة سنة ١٨٩٦ والكسندرا أفرينو « أنيس الجليس » سنة ١٨٩٨ فى القاهرة ، واستير أزهرى مويال «العائلة» سنة ١٨٩٩ فى القاهرة . وتلتها فى القرن العشرين مجلات كثيرة أثبت أنيس المقدسى اسم ٣٤ مجلة صدرت مابين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٤٨ جميعها لسيدات عربيات ، وروى عن أحد المؤرخين أنها بلغت الثمانين[٢] .

والحق أن الصحف أثرت فى حياة العرب السياسية والفكرية والأدبية تأثيراً يكاد يكون منقطع النظير ، مع ضيق دائرته أول الأمر ، بسبب تفشى الأمية واضطراب الحياة السياسية ، واتساعها آخر الأمر .

---

(١) الحركة الأدبية والفكرية فى تونس لابن عاشور ص ٤٣ .
(٢) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

فمن الناحية السياسية كانت الصحف مقر القيادات السياسية فى العالم العربى منها تنتشر المذاهب السياسية ، ويدحض باطل الطامعين والمغرضين ، وبوساطتها تنتقل الأنباء بين مختلف البلدان العربية ، وتؤجج المشاعر القومية ، وتشحذ الهمم ويسرى الوعى . ومن الناحية الاجتماعية ربطت المتعلمين بشعوبهم ، وجمعت شوارد أفكارهم كما تجمع العدسة أشعة الشمس ، ووضحت مسئولية الفرد نحو المجتمع وأثر المجتمع فى حياة الفرد . وفيها قامت المعارك الاجتماعية دفاعا عن تحرير المرأة وتعليمها ، وحثا على نشر العلم ، ورفعاً لمستوى الريف ، وتحريراً من البدع والتقليد ، ودفعاً إلى التقدم ، « حتى أصبح الاصلاح مادة من أهم مواد الصحيفة التى ترجو لنفسها البقاء »[1] .

ومنها فتحت النوافذ على العالم الخارجى بعد أن لبثت مغلقة قرونا ، بما كانت تنشره من أنباء العالم . وكانت الصحف العربية التى تصدر من أوربا والآستانة تمد الرأى العام بأنباء العالم الخارجى ، لتكشف ما يعانيه العرب من تأخر واستبداد .

ومن الناحية الأدبيه كانت الصحف مدارس سيارة للاستنارة والتعليم وحفظ العربية . وفيها نشأت الفنون الأدبية الجديدة كالقصة والمسرحية والمقال الأدبى ، وتطورت الفنون القديمة كالشعر والمقامة . وفيها تجمعت أجزاء من كتب نشرت فيها فصولا متسلسلة ثم جمعت . وفيها قامت المعارك الأدبية بين الأدباء واللغويين كالذى قام بين أحمد فارس الشدياق من جانب وإبراهيم اليازجى ورشيد الدحداح ورزق الله حسون من جانب آخر ؛ وبين لويس شيخو وإبراهيم اليازجى . وبها تمرس عدد كبير من أدباء العرب ، فنما أسلوبهم وترعرع حتى أضحى المقال الأدبى فناً جديداً ذا خصائص مباينة لخصائص النثر القديم .

(١) الصحافة والأدب فى مصر لعبد اللطيف حمزة ص ٣٩ القاهرة ١٩٥٥ .

ومن هؤلاء أحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوى وأديب إسحاق وعبد الله النديم وابراهيم اليازجى وابراهيم المويلحى ومصطفى كامل وعبد الرحمن الكواكبى ومحمد عبده[1]. وفيها تحرر الأسلوب من حليته ونهض من كبوته ودمث ولان وعبر عن حاجات المجتمع الجديدة وما نشأ من نظريات وآراء وعلوم واختراعات . وفيها صوّبت عثرات الأقلام ، ونبه إلى الألفاظ الدخيلة والعبارات الركيكة . وأخيراً اكتسبت بها العربية قوة ومضاء فى ازدحام اللغات الأجنبية عليها ومن حولها .

لقد ظهرت الصحافة والأمة العربية فى أول طريق نهضتها فواكبتها فى سيرها وأخذت بيدها مرحلة مرحلة ، وعكست آلامها وآمالها . ولم يبلغ عامل آخر ما بلغته الصحافة من الشأو البعيد والأثر العميق فى حياة الأمة العربية من كافة نواحيها .

---

(١) انظر نشأة النثر الحديث لعمر الدسوقى ص ٤٩ وما بعدها ، والصحافة والأدب فى مصر لعبد اللطيف حمزة ص ١٠١ وما بعدها القاهرة ١٩٥٥ .

الفصل الثالث

القرن العشرون

١ — الحياة السياسية

٢ — الحياة الاجتماعية

٣ — الحياة العقلية

١ ــ الحياة السياسية

دخل القرن العشرون وعرب الجناح الغربى فى حوزة الدول الأوربية ، وعرب الجناح الشرقى فى حوزة العثمانيين .

بدأ الجناحان يرفان للتخلص من الحكم الأجنبى. رف الجناح الشرقى أولاً فى منتصف القرن التاسع عشر نتيجه عاملين رئيسين . الأول تحسس الواقع الأليم على ضوء ما تسرب إلى الأفراد من نظم الحياة الغربية . والثانى التأثر بالتراث العربى المجيد . ويصور ذلك قصائد الشيخ ابراهيم اليازجى الثلاث ، ومطلعها :

«سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام »

وأنشدت سنة ١٨٦٦

و « دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس »

ونظمت سنة ١٨٨٣

و « تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طمى السيل حتى غاصت الركب»

ونظمت سنة ١٨٨٣[1] .

ومن يتأمل هذه القصائد يلحظ أمرين ، الأول : الإشادة بالمجد العربى :

ــ لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الأنام

ونحن أولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئام

ــ ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا

شرقاً وغرباً وعزوا اينما ذهبوا ؟

---

(١) نشر معظم القصيدة الأولى فى الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو ج ٢ ، س ٤٠ ــ ٤١ ، ونشرت الثانية فى ديوان (العقد) لأبراهيم اليازجى ص٥٩ . ونشرت الثالثة فى جريدة المشير العدد الثمانون بتاريخ ٢٥ ابريل ١٨٩٦ ، وفى (العقد) ص ٥٦ .

والثانى : تقبيح الحكم التركى :

– سلاحهم فى وجوه القوم مكرهم   وخير جندهم التدليس والكذب

لا يستقيم لهم عقد إذا عقدوا   ولا يصح لهم وعد إذا ضربوا

– عمت قبائحهم فأضحت لا تحيط بها الفهارس

وقد اجتمع فى إبراهيم اليازجى تحسس الواقع لاشتراكه فى بيروت فى جمعيات كان أعضاؤها عرباً وغربيين ، والتأثر بالتراث القديم الذى خدمه هو ووالده وآخرون من أسرته .

يضاف إلى ذلك أن جميع الجمعيات السياسية التى أنشئت فى أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين كانت تلح على جعل العربية لغة رسمية فى الأقاليم العربية ، وعلى حمل موظفى الدولة فيها على الإلمام بالعربية . لقد كان فى أعماق الأمة العربية صوت قديم يهيب بها دوماً إلى الحفاظ على لغتها لأنها لغة الحضارة العربية ولغة الوثبة الروحية ، ولأنها من الأمة بمثابة العمود الفقرى .

— ٢ —

كان كفاح الجناح الشرقى للأتراك ، من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩٠٨ — سنة صدور الدستور ثانية — يهدف إلى إصلاح أمور الدولة عامة وإصلاح البلاد العربية خاصة . وهو يلتقى بأهـداف المصلحين الأتراك أنفسهم وذهب فريق من العرب إلى وجوب إعادة الخلافه إلى أربابها العرب. وذهب فريق ثان — فى بيروت خاصة — إلى ضرورة الاستعانة بالدول الأوربية أو على الأقل بالخبراء الأوربيين . وذهب فريق ثالث إلى فصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإقامة دولة عربية مستقلة[1] . على أن صدور الدستور خفف

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى ص ١١١ القاهرة ١٩٥٧

حدة التوتر ، وألف بين العرب والأتراك ، وجمعهم حول الرابطة « العثمانية »، وسادت البلاد العربية موجة من الرضى والاستبشار ، ونظم الشعراء القصائد تأييداً لدولة الخلافة [١]. وأقبل الكتاب على إصدار الصحف محتمين بشعار الدولة الجديد « الحرية والعدالة والمساواة » . وصدر فى مدينة القدس وحدها فى هذه السنة تسع جرائد .

ولم تدم هذه الحال أكثر من عام . ذلك أن حزب (الاتحاد والترقى) الذى تولى زمام الدولة سار على سياسة عنصرية ، وضيق الخناق على دعاة الإصلاح من العرب ، ونبذ مطالبهم وخاصة ما يتعلق بالنظام اللامركزى وسيادة العربية فى أقاليمهما ، وأصبحت العلاقات العربية التركية فى حالة سيئة ، واضطر العرب إلى تأسيس الجمعيات السياسية ، العلنية والسرية ، وإلى عقد المؤتمرات . ومن أهمها مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ الذى أقلق الدولة ، ونال تأييد بعض الدول الأوربية ، حتى اضطرت الحكومة العثمانية إلى مفاوضته والاعتراف بالكثير من مطالبه [٢].

وواجهت الدولة ضربات أفقدتها بعض ممتلكاتها فى أوربا كالبوسنة والهرسك وكريت ، ثم طرابلس الغرب . فشدت هذه الأحداث العرب إليها حتى «أن النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة فى الأدب العربى إلى أوائل الحرب العالمية » [٣]. وكثرت فى هذه الفترة الصحف فى البلدان العربية. ولكنها كانت تسير فى ركاب الدولة .

حلت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ والعرب يركزون مطالبهم فى الإصلاح

---

(١) انظر الاتجاهات الأدبية لأنيس الخورى المقدسى ص ٤٤ .

(٢) انظر نشوء الفكرة القومية لساطع الحصرى ط٢ القاهرة ١٩٥٥ . والبلاد العربية والدولة العثمانية له ص ١٢٠ - ١٢٣ القاهرة ١٩٥٧ .

(٣) الاتجاهات الأدبية لأنيس الخورى المقدسى ص ٧٢ .

والنظام اللامركزى ، والعناية بالعربية ، دون أن يتجاوزوها. ولكن الحكومة ارتكبت فى السنة الثانية من الحرب (سنة ١٩١٥) شنيعة كانت السبب فى انحياز العرب إلى الحلفاء ، ورفع مطالبهم من اللامركزية إلى الإستقلال التام .

تلك تعقّب الزعماء العرب الذين تصدوا لحركة الإصلاح ، ومحا كتهم، وشنق عدد كبير منهم فى القدس وبيروت ودمشق ، ونفى عدد آخر إلى الأناضول ، وتشديد الخناق على كل من اشتبهت به من الأحرار .

واستغل الحلفاء هذه الشنيعة فأججوا النيران فى الصدور، واستهووا الشريف الحسين بن على ، ودفعوه سنة ١٩١٦ إلى الثورة التى كانت من عوامل هزيمة الدولة فى البلاد العربية . وظن الحسين ومن والاه أن الدولة العربية وشيكة الظهور، وخالوا السراب ماء . ولكن ما كادت الحرب تضع أوزارها سنة ١٩١٧ حتى تبين أنها خدعة مبيتة وأن الحلفاء اتفقوا سراً على اقتسام البلاد العربية باسم الوصاية والانتداب .

ودخل فيصل بن الحسين دمشق حليفا ، وأسس ملكه العربى المرتجى الذى دام من مارس إلى يوليو سنة ١٩٢٠ . وسرعان ما اقتلعت فرنسا ملكه وقسمت سوريا إلى دويلات حتى يستتب لها الأمر . كانت هذه أول خيبة أمل لطمت وجوه العرب .

وفى سنة ١٩٢٠ نشبت الثورة فى العراق . فأُرسل إليها فيصل ملكا فى أغسطس سنة ١٩٢٠ لتهدئة الشعب من ناحية ولترضية الأمير العربى الوفى من ناحية ثانية . وابتهج الشعب العربى ، ولكن ما لبث أن اكتشف أن العرش وسيلة لا غاية . على أن شخصية فيصل كانت محور حركة عربية تحسن المجاذبة والمناورة .

وكان الشعراء يتابعون هذه الأحداث ، يفرحون حينا ، ويحزنون حينا

خر . بعضهم يؤمن و بعضهم يكفر . بعضهم يثق و بعضهم يرتاب . ونشأ في هذه المرحلة لون جديد من الأدب هو «الأناشيد القومية» ترافق الاحتفالات والمظاهرات ، وتهتف بها حناجر الشباب مع ألحان الموسيقى .

وحين أصر الحلفاء على تنفيذ خططهم المرسومة ، مداورين حينا و باطشين حينا آخر ، أخذت الثورات تشتعل الواحدة بعد الأخرى .

وسجل الشعر في العراق الثورات والانتفاضات من سنة ١٩٢٠ إلى قيام الجمهورية العراقية سنة ١٩٥٨ . وكان جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ومحمد مهدي الجواهري ومهدي البصير ومحمد رضا الشبيبي وأخوه باقر ومحمد بهجة الأثري وغيرهم سيوف الثورات وألسنتها الحادة .

وقامت في سوريا « الثورة السورية الكبرى » سنة ١٩٢٥ ، واشترك فيها جبل العرب — الدروز — حتى أعلنت الجمهورية سنة ١٩٣٢ . وهزت هذه الثورة شعور العرب لكثرة من استشهد فيها من أبطال ، ونشبت من معارك بين باطل مسلح بالحديد والنار وحق أعزل إلا من البسالة والايمان . وانطلق ذلك الشعراء ، فتباروا بين واصف معركة ورائي شهيد ونادب أطلال ومستصرخ ومستغيث ومشفق وناقم[1] مثل أحمد شوقي وعبد المحسن الكاظمي وخير الدين الزركلي وشكيب أرسلان وأحمد زكي أبي شادي ومحمد بهجة الأثري ومحمود رمزي نظيم وخليل مردم وغيرهم .

أما فلسطين فلم تكف عن الثورات من سنة ١٩٢١ لأن مصيبتها كانت مزدوجة بالاستعمار والصهيونية . وعبر عن ذلك عبد الكريم الكرمي بقوله :—

---

(١) ديوان الثورة جمع محمد ياسين عرفة ص ٤ القاهرة ١٩٢٦ .

واعتنقنا الوغى ثلاثين عامـا
ونفرنا لهـا شبابا وشيبا
وبلونا المستعمرين طغاة
وحطمنا مخالبـا ونيوبا[1]

ثلاثون عاما وعرب فلسطين تراق دماؤهم وتهدم بيوتهم ويشرد أبطالهم ، وهم مع ذلك ثابتون يذيقون العدو الهوان . وكان شاعرهم الفتى ابراهيم طوقان يخلد بطولتهم بعاطفة ثائرة وخيال رائع وعبارة محكمة . واشترك مع شعراء فلسطين معظم شعراء العرب . وحين حلت « النكبة » وأخرج عرب فلسطين من ديارهم بالغدر والخيانة ونسف البيوت وبقر البطون بوحشية نادرة انطلقت الألسنة أقوى ما تكون حتى تكون أدب عرف « بأدب النكبة »[2] .

— ٣ —

أخفقت ثورة أحمد عرابى فى الظاهر ، وتمكن الانجليز من احتلال مصر والسيطرة على جميع مرافقها . ولكن مصطفى كامل جمع القوى المبعثرة وأحيا الآمال الدفينة ، ورفع صوت مصر عاليا فى مصر وأوربا مطالبا بالاستقلال . وتألف الحزب الوطنى ، جمعية سرية أول الأمر برئاسة الخديوى عباس الثانى وعضوية مصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد وغيرهم[3] . وتوفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فرثاه الشعراء معبرين عن فجيعة البلاد بفتاها ورمز آمالها .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى لجأ الشعراء فى مصر إلى التقية ولكن

---

(١) ديوان المشرد ص ٨٤ دمشق ١٩٥٣ .
(٢) جمع جزءاً منه الدكتور صالح الاشتر فى كتابه « فى شعر النكبة » دمشق ١٩٦٠ ، وفى محاضرته « مأساة فلسطين وأثرها فى الشعر المعاصر » دمشق ١٩٦٠ .
(٣) قصة حياتى لأحمد لطفى السيد ص ٣٩ القاهرة ١٩٦٢ .

شعورهم كان مع دولة الخلافة ، اندفاعا مع العاطفة الدينية من ناحية ونكاية بالمحتلين من ناحية ثانية .

وبعد الحرب تسلم سعد زغلول علم الجهاد مطالبا بالغاء الاحتلال وتنفيذ شروط الرئيس ولسن بشأن تقرير المصير . وتألف الوفد المصرى سنة ١٩١٨ . وهبت ثورة سنة ١٩١٩ مؤلفة بين القلوب وداعية إلى التضحية والفداء . وأخذت الأحداث تتابع ما بين نفى وعودة من نفى وإحياء ذكرى زعيم ، والشعراء والخطباء يلهبون المشاعر ويدفعون القوى نحو الهدف الأسمى ، حتى خضع الانجليز لمشيئة الشعب ، وحققوا مطالبه مقسطة ما بين الغاء الحماية وإعلان الملكية بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وصدور الدستور سنة ١٩٢٣ ، والغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٣٦ إلى خروجهم سنة ١٩٥٦ فى عهد القيادة الثورية التى صفت معظم القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية على أسس اشتراكية جريئة بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر .

كان كفاح مصر السياسى مناط أمل العرب جميعا فى المشرق والمغرب ، مع ما بذل المحتلون من جهود لحصره فى نطاق اقليمى . فقد آمن العرب ، منذ البداية أن أية معركة ينتصر فيها شعب عربى هى معركة العرب فى كافة ديارهم ، وأن معركة الاستقلال والحرية واحدة لا تتجزأ . ولذا هبّ الشعراء والكتاب فى جميع البلدان العربية يواكبون مصر فى انتصاراتها المتوالية ، ويجدون فيها القدوة والمثال المحتذى .

على أن نهاية الحرب العالمية الثانية أدخلت القضايا العربية فى مرحلة حاسمة . ففى سنة ١٩٤٥ تأسست جامعة الدول العربية مؤذنة بفجر جديد .

وفى سنة ١٩٤٦ ظفرت سوريا ولبنان باستقلالها ، وخطتا نحو التنظيم الداخلى خطوات واسعات . وتدرج العراق فى اغتصاب حقه فى معاهدات متلاحقة حتى قامت ثورته الشعبية سنة ١٩٥٨ . وتدرج السودان فى تحقيق أمانية القومية

من المجلس التشريعى الذى تكون سنة ١٩٤٨ إلى المعاهدة المصرية ـ السودانية التى قررت استقلاله سنة ١٩٥٣ إلى تأليف أول وزارة سودانية سنة ١٩٥٤ إلى استقلاله الكامل وخروج المحتلين سنة ١٩٥٦ .

أما المغرب العربى فقد كانت وطأة الاستعمار فيه أشد ، وتكالبه على المحافظة على حكمه واستنزاف خيراته أقوى . ولكن اشتداد الوعى العالمى ويقظة الضمير الانسانى وازدياد عنف المقاومة أثمرت . فنالت ليبيا استقلالها سنة ١٩٥٢ إثر ما أراقته من دماء فى مقاتلة المستعمرين من ناحية وتأييدها الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى .

ونالت تونس استقلالها سنة ١٩٥٥ بعد ٧٤ عاما من كفاح سياسى وفكرى ودينى . ونالت المغرب استقلالها سنة ١٩٥٦ بعد كفاح دولتين هما فرنسا وأسبانيا دام من سنة ١٩١٢ إلى ذلك التاريخ . ونالت الجزائر استقلالها سنة ١٩٦٢ بعد أن ضحت بمليون شهيد أى نحو ١/١٠ سكانها خلال سبع سنوات .

كانت فرنسا تعتبر الجزائر جزءاً منها ، ولم يزحزحها عن ذلك إلا الثمن الغالى الذى دفعه عرب الجزائر من دمائهم وأموالهم .

وماذا كانت نتائج هذا الكفاح الطويل المرير ؟

لقد صرف العرب معظم طاقتهم إلى مقاومة الاستعمار بدلا من تعمير بيتهم من الداخل ووصل حاضرهم بماضيهم وترك الكفاح فى كل بيت شهيدا ، وعلى كل بقعة دما زكيا . وأدى ذلك ضرورة إلى تضخم الشعور الوطنى ، وإلى ربط البلاد العربية برابطة «الجراحات» فوق الروابط الطبيعية المألوفة . وتعلم العرب أن الحق يؤخذ ولا يعطى ، وأن القوة هى حامية الحق . وهذا اتجاه ربما يبدو غريبا فى العصر الحديث ، ولكن العرب دفعوا إليه .

وتكونت فى النفسية العربية عقد كثيرة ، كخوف الانسان من أخيه

الإنسان ، والشك فى نوايا الأعداء التقليديين ، والاحتراس البالغ وما إلى ذلك . ولكنها عقد ستحلها سنواتُ الأمن والسلام وتبادلُ الثقة والمحبة بين شعوب العالم .

أما من حيث الأدب فإن معظم الشعر الحديث ، منذ مائة سنة ، شعر سياسى قومى . ولا يخلو ديوان من قصائد وطنية أو قومية . والشاعر الذى لم يستجب لنداء الوطن اعتبر متخلفاً عن قومه . وبذلك أضحى معظم الشعر وسيلة لا غاية ، وذريعة للدفاع عن الحياة بدلا من أن يكون نغماً حلواً يحبب إلى الحياة ويزيدها بهجة وعمقاً . وقل الشعر التأملى الرفيع الذى ينبع من النفس الوديعة المتألقة فى عالم المثل العليا . وظلت الصبغة الخطابية غالبة واستهواء الجماهير سائداً . وعنى الأدباء عناية بالغة فى تقويم الأدب القديم لأنه كان وسيلة من وسائل حفظ وجودهم وجمع شملهم وتآلفهم لدفع العدوان الخارجى .

أما الأدب المنثور الذى لم يندفع نحو الكفاح فبرزت فيه ظاهرة الشعور الانسانى وعالج فى بعض ألوانه قضايا إنسانية مشتركة ودنا من الأدب العالمى الذى يطرب نفس الانسان حيثما كانت .

٢ ـــ الحياة الاجتماعية

نكب المجتمع العربى من الخارج ، فى بضعة القرون التى سبقت النهضة بحكم أعجمى أدى إلى العزلة والتخلف . ونكب من الداخل بحكم استبدادى مبطن بالدين ، والدين منه براء ، وبفساد التعليم ، وبحرمان المرأة من حقوقها التى نص عليها الشرع ، وبانحراف فى القيم الخلقية التى اكتسبها أيام السؤدد .

وإذا وازنا حال المرأة فى تلك القرون المظلمة بحالها فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية وجدنا أنها لم تثبت على حالها فحسب ، بل سارت القهقرى إلى ما وراء تلك العصور . والدليل على ذلك أن الرواية وتلقى العلم والاسهام فى الأدب انقطعت حتى لانكاد نقع على شاعرة أو أديبة نابهة ، فى حين نجد ـ مثلا ـ شمس الدين السخاوى ، فى القرن الخامس عشر م ، يفرد فى كتابه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » جزءاً كاملا للنساء العالمات والأديبات باسم « كتاب معجم النساء » ، مع أن عصره لم يتفرد بالخصب .

ونشأت فى العصر الحديث قضايا نسوية مختلفة كالحجاب والزواج والطلاق والميراث وحق العلم والعمل والتصويت والانتخاب .

كما نشأت قضايا اجتماعية كالفروق الطبقية التى اتسعت باتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، وندرة الطبقة المتوسطة ، وكالبؤس والتشرد والتزمت ، وتفشى الخمر والميسر خلافا لأحكام الشرع .

على أن الحقيقة أن المجتمع لم يتساو فى قوته وضعفه . فقد ظلت للريف خصائصه من تعاون الرجل والأنثى ، والمحافظة على العبادات ، والتبعية فى معظم البلدان للمتنفذين من أهل المدن ، والتفاف الأسر حول الشيوخ ، والشيوخ حول العمد . وظلت للمدن خصائصها من المحافظة على صلات القربى ، واستقطاب

رب الأسرة ، والتخفف من أحكام الشرع . وظلت للبادية خصائصها من العصبية القبلية والفروسية والكرم والجرى وراء الماء والكلأ والمحافظة على التقاليد المتوارثة .

يضاف إلى ذلك أن الوازع الديني فى بعض المجتمعات عصمها من الإنحلال الخلقى ، وأمسك عليها قيمها المتوارثة كالصبر والرضى والوفاء وتقوى الله والابتعاد عن الموبقات . ولولا ذلك لكبا المجتمع كبوة لا قيام له منها . ونجم عن ذلك أن البلدان العربية مع ما تعرضت له من ضغط سياسى وعسكرى وحضارى عنيف استطاعت أن تحافظ على جوهر وجودها وأن تتماسك حتى اجتازت خطر التلاشى وفقدان الشخصية المعنوية .

— ٢ —

ذكر أدوارد لين فى كتابه عن أخلاق وعادات المصريين المحدثين الذى ألفه ما بين سنة ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥ أن تعليم البنات القراءة والكتابة كان نادراً فى مصر ، وأن بعض الأغنياء كان يستعين بالشيوخ أو الشيخات لتعليم البنات قراءة القرآن الكريم ولكن ذلك من الأمور النادرة حتى فى أسر الطبقات العليا [1] .

وذُكر أن مصر لم يكن فيها عام ١٩١٤ سوى مدرستين رسميتين ابتدائيتين كان مجموع عدد التلميذات فيها ٤٣٨ تلميذة ، وأن العراق كان خلواً من المدارس الحكومية للبنات ، وأن حالة التعليم النسوى لم تختلف كثيراً عن ذلك فى سائر الأقطار العربية [2] .

---

(١) An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians by E. Lane (undated) P. 51

(٢) الوعى التربوى لجورج شهلا وعبد السميع حربلى ص ٤٦٢ بيروت ١٩٥٥ .

ومر التعليم النسوى فى ثلاث مراحل . الأولى من النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى . والثانى من الحرب العالمية الأولى إلى العقد الثالث من القرن العشرين . والثالث من العقد الثالث إلى الوقت الحاضر.

وفى المرحلة الأولى تولى تعليم البنات الارساليات الدينية . جاءت « راهبات القديس يوسف » إلى فلسطين سنة ١٨٤٨ وأنشأن دوراً لليتيمات ومدارس ابتدائية . ثم أنشأن المدارس فى سوريا ولبنان . وجاء بعدهن « راهبات سانت كلير » أو « راهبات المحبة » سنة ١٨٨٤ و « راهبات الفرنسسكان » سنة ١٨٨٥ ، و « شقيقات الاحسان » سنة ١٨٨٦[١] . الخ . .

وأسست بعض هذه الارساليات مدارس فى مصر ، لايزال معظمها قائما إلى اليوم ، منها مدرسة أسيوط للبنات سنة ١٨٦٥ ، وكلية البنات الأمريكية سنة ١٨٦١[٢] ، علاوة على مدارس الجاليات الأجنبية .

وجميع هذه المدارس تقريباً من طراز واحد . فهى تعنى أولا باللغات الأجنبية وبالدين المسيحى وتقتصر على تعليم مبادىء العلوم والأعمال اليدوية .
وكان يقابل ذلك عند العرب أنفسهم كتاتيب بدائية نسبة البنات فيها ضئيلة للغاية .

وفى المرحلة الثانية تغير الحال تغيراً عظيما ومطرداً . إذ ارتفع عدد المدارس الابتدائية الرسمية للبنات فى مصر من مدرستين سنة ١٩١٤ إلى ١٨ مدرسة سنة ١٩٢٢ إلى ٧٥ مدرسة سنة ١٩٤٧ إلى ٨٣٠ مدرسة سنة ١٩٥٣ . وارتفع عدد المدارس الثانوية من مدرسة واحدة سنة ١٩٢٠ إلى ١٣٧ مدرسة سنة ١٩٥٣ .

---

(١) ولاية بيروت لمحمد رفيق التميمى ج ١ ، ص ٢٥ ـ ٢٨ ، بيروت ١٣٣٥ هـ .
(٢) التربية فى الشرق الأوسط لمايثوز ومتى عقراوى ص ١٣٩ القاهرة ١٩٤٩ .

وارتفع عدد المدارس الابتدائية فى العراق من مدرسة واحدة سنة ١٩٢٠ إلى أكثر من مائة مدرسة سنة ١٩٣٤ وإلى ٢٢٨ مدرسة سنة ١٩٥٢ . وزاد عدد المدارس الثانوية من ٣ مدارس سنة ١٩٣٠ إلى ٣٩ مدرسة سنة ١٩٥٢[1].

وحدث ما يشبه ذلك فى معظم البلدان العربية .

وفى المرحلة الثالثة فتحت الجامعات الوطنية أبوابها للطالبات اللواتى ارتفع عددهن عاما بعد آخر حتى أصبح سنة ١٩٥٢ ، ١٠٢٢ طالبة فى العراق و ٤٩٦ طالبة فى سوريا و ٣٩٨ طالبة فى لبنان و ٣٧٨٧ طالبة فى مصر[2] .

وتنوع تعليم الفتيات حتى أصبح يشمل معظم المهن كالطب والصيدلة والزراعة والهندسة والحقوق .

وفى بداية العقد السادس فتحت الجامعة الأزهرية كليات للشابات حتى يتفقهن فى الدين تفقه الشبان .

وبذلك حلت المشكلة الأولى للمرأة ، وتراخت سائر المشكلات ودخل المجتمع العربى فى دور قريب من التعادل بين الجنسين . وفى العالم العربى اليوم عدد من الشاعرات والكاتبات والصحفيات علاوة على الطبيبات والمحاميات والموظفات والمجاهدات فى سبيل الوطن .

وقد وصف لطفى السيد رسالة الجامعة وأثرها فى المجتمع بقوله : « فإن الجامعة بما هى أكبر الوحدات الاجتماعية عددا وأسماها مكانة وأخطرها مسئولية وأشملها رسالة هى بكل أولئك مصدر اشعاع يشع منه التضامن القومى . ففى العائلة يولد التضامن ، وفى المدرسة ينشأ ، وفى الجامعة يشب ويؤتى كل

(١) حولية الثقافة العربية لساطع الحصرى سنة ١ ص ٣٤٩ ـ ٣٧٣ القاهرة ١٩٤٩.
(٢) المصدر السابق ص ٨٦ وسنة ٢ ص ٣٢٧ وسنة ٤ ص ٩٣ . والوعى التربوى ص ٤٦٣ .

ثمراته ، ويضرب المثل الأعلى للتضامن فى جميع طبقات الشعب »[١] .

أما مركز المرأة الاجتماعى وما يتصل بها من شئون كالحجاب والطلاق وتعدد الزوجات وحرية العمل فقد استرعى عناية المفكرين منذ بداية النهضة لا سيا من وقف منهم على حال المرأة الغربيـة ولمس بمقدار رقيها بالقياس إلى ما كانت عليه فى القرون الوسطى .

وأجمع المفكرون ، سواء محافظين كانوا أم مجددين ، على وجوب إصلاح حالها بتعليمها ، وكبح جماح المسرفين فى الزواج والطلاق ، وتخفيف وطأة الحجاب الذى تجاوز فى بعض البيئات حد المصلحة العامة وحقوق الإنسان الطبيعية . ولم يقع الخلاف بين الفريقين إلا فى الوسائل والمدى .

ويقف على رأس المفكرين فى القرن التاسع عشر رفاعة الطهطاوى الذى تتبع حال المرأة الفرنسية فى أثناء مقامه فى باريس ووازنه بحال المرأة فى مصر وأشار إلى مواطن الخلاف بينهما . ومما ذكره فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز »[٢] :

(١) قلة عفاف كثير من النساء الفرنسيات وما يقابله فى الشرق من الغيرة عليهن والاسراف فى التضييق على حريتهن حتى أضحين كأمتعة البيوت .

(٢) الرقص فى فرنسا من الفنون الجميلة ، وفى مصر ضرب من اثارة الشهوات .

(٣) التساوى عندهم بين المرأة والرجل فى معظم الحقوق كالأسفار للوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها .

(٤) الحب عندهم وسيلة للزواج .

---

(١) قصة حياتى ص ١٩٠ القاهرة ١٩٦٢ .

(٢) طبع القاهرة سنة ١٩٠٥ .

(٥) عفة النساء لا تأتى من الحجاب أو عدمه بل من التربية الجيدة والحسيسة والتعود [على] محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة . والعفة توجد عند نساء الطبقة الوسطى دون نساء الأعيان والرعاع .

ودعا الطهطاوى فى كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » إلى تعليم البنات كى يزددن أدبا وعقلا ، وكى يصلحن لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، ولكى يتمكن من تعاطى الأشغال والأعمال عند اقتضاء الحال على قدر طاقتهن أسوة بالرجال ومنجاة من البطالة .

وحذا حذو الطهطاوى فى الانتصار للمرأة أحمد فارس الشدياق فى كتابه « الساق على الساق »[١] فدعا إلى تعليمها القراءة والكتابة على أن تقتصر مطالعتها على الكتب المهذبة للأخلاق . ومن أوائل الداعين إلى تعليمها فى بلاد الشام المعلم بطرس البستانى وابنه سليم .

وممن انتصر للمرأة محمد عبده ، فدعا إلى تعليمها كالرجل ، وإلى تقييد الزوجات عملا بروح الشريعة ، وإلى تكريمها حتى تحتل مكانها الذى وضعها فيه الدين . وكان عبده يؤيد قاسم أمين الذى يعد بطل المعركة النسوية فى بلاد العرب جميعا ، ومحاميها الفرد فى مستهل القرن العشرين .

ويتفرد قاسم أمين بكتابة كتابين فى الموضوع هما : تحرير المرأة سنة ١٩٠٠ م و « المرأة الجديدة » بعد نحو سنتين ، ويدرس الموضوع درسا واسعا من المصادر الإسلامية والغربية ، وبالتزام المنهج العلمى القائم على الإحصاء والاستقراء ، وبتأثيره فى الرأى العام تأثيراً واسعاً وعميقا .

---

(١) الساق على الساق فى ما هو الفارياق ، القاهرة (بلا تاريخ) المطبعة التجارية .

وخلاصة ما ذهب إليه :

(١) أن استعباد المرأة ليس من الدين بل من العادات الشائعة القابلة للتغير بتغير الظروف . ولو كان للدين سلطة على العادات لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدمة نساء الأرض .

(٢) أن علة انحطاطها راجعة إلى الاستبداد السياسى والاجتماعى عند الأمم الداخلة فى الإسلام .

(٣) أن رقى الأمة موقوف على رقى المرأة .

(٤) أن تعليم المرأة يجب أن يكون كتعليم الرجل فى المرحلة الابتدائية على الأقل .

(٥) أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية فى العالم عرفه الغرب كما عرفه الشرق ، وسيزول فى الشرق كما زال فى الغرب .

(٦) أن ضرر منع الطلاق كضرر إباحته المطلقة ، وأن خير الحلول إباحته بشروط وأن تتساوى المرأة والرجل فى ممارسته .

(٧) أن الفضيلة فى المرأة لا ترجع إلى حجابها بل إلى تربية إرادتها .

(٨) أن المرأة يجب أن تعد للعمل فى المجتمع فى جميع الأعمال التى قوامها الترتيب والنظام لا قوة العضلات ، اتقاء للطوارىء .

وخلفت قاسم أمين ملك حفنى ناصف المتوفاة سنة ١٩١٨ ، فكتبت المقالات المسهبة فى شئون المرأة ، وعرضت مشروعا ذا عشر نقاط ليكون قانونا ، منها : تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى وجعل التعليم الأولى اجباريا فى كل الطبقات ، وتعليمهن التدبير المنزلى علما وعملا وقانون الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الوقتية فى الطب ، واطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد ، واتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم ، واتباع عادة نساء الأتراك فى الحجاب والخروج .

ثم أضافت إليها عشرة اقتراحات فيها تفصيل[١] . وكان لهذه الحركة صدى في البلاد العربية . ففي تونس ، مثلا ، شاعت الدعوة إلى السفور وتحرير المرأة ، وانقسم القوم إلى مؤيد ومعارض . وألف الطاهر الحداد كتاب « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » انتصر فيه للمرأة وذهب إلى حد الدعوة إلى تغيير الأحكام إذا عارضت المصالح الحادثة المتلائمة مع مدارك الشريعة ، وتصدى للرد عليه رجال الدين فوضع كتاب « الحداد على امرأة الحداد » وكتاب « سيف الحق »[٢] .

ودخلت الحركة النسوية بعد ذلك مرحلة جديدة نتيجة ثلاثة عوامل : الأول اشتراك المرأة في النشاط السياسي كعقد الاجتماعات وتصدر المظاهرات ما بين سنة ١٩١٩—١٩٢٥ . والثاني دخول الفتاة الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ والثالث تأسيس الاتحاد النسائي بزعامة هدى شعراوي في جميع البلدان العربية .

وأسهم في دفع الحركة النسوية عدد كبير من قادة الفكر كأعضاء « جماعة السفور »[٣] ، والدكتور محمد حسين هيكل ، وأحمد لطفي السيد ، ومحمد جميل بيهم ، واسماعيل مظهر وغيرهم .

— ٤ —

وأثرت هذه الحركة في الأدب المعاصر ، إذ نظم عدد من الشعراء قصائد دفاعا عن المرأة كجميل صدقي الزهاوي ، ومعروف الرصافي ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، ونقولا فياض ، وخليل مطران ، وفوزي المعلوف .

ومن الأبيات السائرة قول حافظ إبراهيم :

---

(١) باحثة البادية بقلم مي ص ٩٢—٩٥ القاهرة ١٩٢٠ .

(٢) الحركة الأدبية والفكرية في تونس لابن عاشور ص ١٢٧ و ١٦١ .

(٣) انظر كتاب (خبايا سياسية) للدكتور محمود عزمي ص ٣٨ القاهرة (بلاتاريخ) .

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأخلاق

وقول نقولا فياض :

الكون شعر أنت بيت قصيده لولاك ما عرف الورى إنشادا

و بتأثيرها تطور المسرح وارتقت المسرحية إذ أصبحت وسيلة لعرض القضايا الاجتماعية وتحليل نفسية الجماعات . وتطورت القصة واتسع نطاق ميدانها فأصبحت المرأة عنصراً حياً فيها . واشتركت عدد من النساء فى الحياة الأدبية من صحافة وتأليف وتدريس و بحث .

ومن الطبيعى أن تظل قضية المرأة رهنا بتطور المجتمع . وفى مرحلة الاشتراكية الديمقراطية التى دخلتها مصر اتسع مجال التساوى بين المرأة والرجل ، وحلت معظم القضايا التى أثارها رواد النهضة الاجتماعية . ولابد من أن يسرى التيار نفسه إلى البلاد العربية الأخرى .

لاشك فى أن تطور المرأة وثيق الصلة بتطور الرجل نفسه ونظره إلى الحياة ، بقدر ما هو وثيق الصلة بتطور العالم العربى فى ميادين السياسة والعلم والصناعة . وعلى قدر نهوض المرأة بواجبها فى المرحلة الحاضرة تظفر بحقوقها .

٣ — الحياة العقلية

أسهم العرب في عصور الازدهار في تقدم العلوم على مختلف أنواعها من طب وصيدلة وكيمياء ونبات وفلك ورياضيات وما إليها . وتحدث العلماء المتأخرون الذين أرخوا للعلوم عن أثر العرب في هذه الموضوعات[١] .

وتميز العرب بأمرين : الأول الايمان بالله وبالعلم أو بالدين و بالدنيا عنصرين متماسكين . فكانوا يصلون لله في مساجدهم و يعكفون على دراسة العلم في معاهدهم في وقت واحد . والثاني اعتبارهم العلوم وحدة ذات فروع متشابكة ، فكانوا يدرسون الفلسفة والدين والطب والفلك والجغرافيا والرياضيات وما إليها دراسة عضوية ، لا يغنى أحدها عن الآخر .

ولما دخلوا في عصور الظلمات التي استمرت أكثر من ثلاثمائة سنة فقدوا المزيتين السابقتين من جهة ، وتفشت بينهم ظواهر مختلفة أدت إلى فقدانهم مزايا الكشف والابداع من جهة أخرى . ومن هذه الظواهر تفشى الأمية بين سوادهم ، ولا سيما بين النساء اللواتي يصنعن الرجال ؛ وشيوع المعارف التي روجها المشعوذون كالسحر والطب الروحاني وتفسير الرؤيا والاستخارة والبحث عن الكنوز وطلب الذهب من المعادن الخسيسة ؛ والانصراف عن العلوم المدنية القائمة على الاختبار والتحليل كالطب والهندسة والزراعة والصناعات الراقية بأنواعها واحتقار المهن اليدوية والآلية كالصباغة والحدادة والدباغة والحياكة وتركها للطبقات الحقيرة كاليهود ومن في حكمهم ؛ والمبالغة في تقويم علوم الأوائل وأنهم

---

(١) انظر **Introduction to the history of science , George Sarton, Washington 1927 ; Arab contribution to civilization by Rom Landau , San-Francisco 1958 .**

لم يتركوا للأواخر مجالا لقول ، وانصراف همهم إلى فهم كتب الأوائل وشرحها والتعليق عليها ؛ والاقتصار على العلوم الدينية القديمة وما يعين على فهمها من علم اللغة فى كتبها القديمة ؛ والزهد فى الدنيا وعلومها ومادتها وطلب الصوفية الشكلية والعلم اللدنى وقراءة الأوراد والأذكار ، وإيثار الغيبيات على العلم التجريبى ؛ والانصراف إلى الزراعة موردا رئيسا لكسب العيش مع توافر العناصر الطبيعية للصناعة كوفرة المياه والمواد الأولية وجودة المناخ وبقايا الخبرة والصناعات القديمة المتوارثة ؛ والاعتماد على الفتاوى فيما يجوز وفيما لا يجوز فى المسائل العمرانية المحض .

ونجم عن ذلك أن فقد الايمان بالإنسان المبدع ، وتراخت الهمم العالية ، وانحسر الطموح ، وشاع الرضى والقناعة ، وانعدم البحث والكشف والابداع وتعطلت الملكات العقلية والمواهب الجثمانية ، واعتمد على الأجانب فى سد الفراغ فى النواحى الفنية والصناعية والعمرانية .

— ٢ —

وحين بدأ العرب يمسحون الكرى عن جفونهم ، ويحدون النظر إلى قديمهم وحديثهم ويبصرون أنفسهم ومن حولهم دب الوعى تدريجا وأخذت السحب تنقشع والقيم تنقلب والحال يتغير .

كانت البداية المدارس العسكرية التى أنشأها الحكام الطامحون فى تركيا ومصر فى القرن التاسع عشر . وبوساطة هذه المدارس دخلت العلوم العصرية على مختلف أنواعها كالطب والصيدلة والهندسة والرياضيات والطبيعة الولايات العثمانية[1] .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تأسست الجامعة الأمريكية — ثم

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية للحصرى ص ٧١ — ٧٤ .

الـكلية اليسوعية فى بيروت ـ فانحدر إليها الطلاب من مختلف البلدان العربية ، وفيها تخرج عدد كبير من الأطباء والصيادلة والعلماء والأدباء حتى اعتبرت جامعة بيروت مركز الأشعاع الأول فى الشرق العربى إلى الربع الأول من القرن العشرين . ومع ذلك ظل الأزهر ومعاهد الاستانة العالية تجذب عددا من الطلاب يعد منافسا لطلاب بيروت رغم صعوبة السفر إليها . ولـكن الدراسة الفنية فى جامعة بيروت لم تحقق كل الفائدة للبلاد العربية لسببين ، اقبال الموسرين على العلوم المؤدية إلى وظائف الدولة ذات الجاه العريض ، وليس الطب والصيدلة والهندسة منها ، واحتكار الاقليات أو أسر معينة منهاهذه الموضوعات ومايزال هذا ماحوظا إلى اليوم .

ومع أن بيروت قدمت خدمة جلى للعقل فأن القيود المادية والمعنوية قصرت طلب العلم على أفراد كانت أنوارهم لا تستطيع اختراق الظلمات الـكثيفة .

وأسس الفرنسيون فى المغرب العربى معاهد حديثة كانت ترسل النخبة من خريجيها إلى الـكليات الفنية فى فرنسا . ولـكنها كانت تختلف عن معاهد بيروت من ناحيتين : الأولى أن فرنسا كانت دولة مستعمرة . والثانى أن الثقافة اللاتينية تميزت بطابع التعصب فى محيط إسلامى نافر . ولذا كانت الأسر المحافظة تقبل على المدارس الفرنسية بحذر . ومن دخلها تخلى عن كثير من تقاليد أمته وقيمها المتوارثة ، وأصبح فرنسى اللسان والقلب إلى حد ما [1] . ومع ذلك لم تستطع فرنسا أن تحقق أغراضها السياسية فى المغرب العربى . وكثير من أدباء المغرب حارب فرنسا بلغتها وثقافتها ، إذ أن الثقافة سلاح ذو حدين . وقد أخفقت وسيلة من وسائل محو القومية والدين والسيطرة الاستعمارية الفـكرية والسياسية ـ والتحدى يجنى على نفسه فى معظم الأحيان .

---

(١) أنظر الحركة الأدبية والفـكرية فى تونس لإبن عاشور ص ٨٢ ـ ٨٣ .

وتحققت الفائدة على وجه أتم حين تأسست الجامعات الأهلية فى حاضرات العالم العربى ، فى القاهرة والاسكندرية وأسيوط ودمشق وحلب و بغداد والرياض والخرطوم و بنغازى والرباط وعمان وقد اشترك عدد من العلماء الغربيين فى تأسيس هذه الجامعات وأدارتها والتدريس فيها ، الأمر الذى أعان على سرعة نموها وارتفاعها إلى مستوى عال . و بدأت الجامعات بعدد قليل من الكليات ثم زاد تدريجاً حتى شمل معظم فروع التخصص . فجامعات مصر عام ١٩٦٢ تضم ٣٧ كلية عملية ونظرية ، ١٢ منها فى جامعة القاهرة و ١٠ فى الأسكندرية و ٩ فى عين شمس و ٦ فى أسيوط . وفروع التخصص فى القاهرة هى الآداب والحقوق والتجارة والعلوم والطب وطب الاسنان والصيدلة والهندسة والزراعة والطب البيطرى ودار العلوم وكلية البنات وزاد عدد طلاب الجامعات الثلاث من ٤٢٫٠٠٠ طالب سنة ١٩٥٢/٥٣ إلى ٩٦٫٠٠٠ طالب سنة ١٩٦١/٦٢[١] وفى خلال السنوات العشر الماضية انفق على التعليم ضعف ما أنفق عليه فى خلال سبعين سنة ابتداء من سنة ١٨٨٢ . وأهم من ذلك أن أصبح التعليم الابتدائى الزاميا وبالمجان والتعليم الجامعى بالمجان . وارتفعت نسبة المقبولين فى المرحلة الابتدائية من ٤٠٪ سنة ١٩٥١ إلى ٨٨٫٢٪ وفى بعض المناطق ١٠٠٪ سنة ١٩٦١[٢] .

ونتج عن ذلك أن أصبح العلم فى متناول جميع طبقات الشعب ، الغنية والفقيرة ، القروية والمدنية ؛ وأن أضحت العقلية أكثر تجانسا ؛ وأن أمست المناهج أشد ملائمة لمصلحة البلاد ومطالبها .

ومع ذلك ما تزال العقلية العربية فى مرحلة التكون يقارب بينها العلم ويباعد بينها اختلاف أنظمة الحكم والتيارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

---

(١) حولية الثقافة العربية لساطع الحصرى (الخامسة) سنة ١٩٥٧ وكتيب العلم والثقافة لوزارة الارشاد فى الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦٢ ص ٩ .

(٢) كتيب العلم والثقافة ص ٣ .

و إذا قيس المستقبل بالماضى القريب ونظر إلى ما أنجز فى العقد الأخير و إلى مافى باطن الأرض من ثروات و إلى مافى القوى البشرية من طاقات تبين أن الحياة العقلية ستدخل مرحلة أكثر خصبا وانتظاما وانسجاما .

— ٣ —

ويوجد مصدر آخر كبير الأثر فى بناء العقلية العربية وتطورها هو الترجمة. لقد كانت الشقة واسعة جدا بين ما انحدرت إليه المعارف العربية فى عصور التخلف، وما ارتقت إليه العلوم الغربية فى شتى الميادين . وكان قصد المترجمين إقامة جسر بين الطرفين . ولكن هذا الجسر يحتاج إلى مخطط دقيق لاحكام الربط، وصرف الجهد إلى ما هو مفيد ، ومراعاة الدقة فى الترجمة .

ومن الطبيعى أن ينصرف المترجمون فى بداية النهضة إلى الكتب العلمية التى يحتاج إليها الجيش والمعاهد المتعلقة به . كما كان من الطبيعى أن يؤثر رجال الدين – فى لبنان – الموضوعات الدينية ، ورجال الأدب الفنون الأدبية من مسرحية وقصة وشعر ، ورجال الصحافة المباحث العلمية ، والأدبية والاجتماعية الملائمة لذوق القراء والمسايرة للتطور العقلى .

وتميزت الترجمة فى القرن العشرين بظاهرتين : الأولى الترجمة الواعية الهادفة والثانية الترجمة التى تشرف عليها الدولة وترصد لها الأموال وتخصص لها الادارات أو الدواوين ، علاوة على استمرار الترجمة الحرة التى يتولاها الأفراد لمطالب مختلفة .

ويقف على رأس المترجمين الهادفين أحمد فتحى زغلول (١٨٦٣ — ١٩١٤). فبعد عودته من فرنسا بسنتين – أى سنة ١٨٨٨ – توجه فكره – كما يقول – « إلى تقديم خدمة لابناء هذا الوطن الجليل فيما تعلمته من اللغة الفرنساوية بنقل ما فيها من النفائس إلى اللغة العربية »[١].

---

(١) مقدمة أصول الشرائع القاهرة ١٣٠٩ ص ٣ .

وبدأ بكتاب « أصول الشرائع » لبنثام Bentham's Principles of Legislation فى جزءين . وبعـد تسع سنوات ـ أى سنة ١٨٩٧ ـ ترجم كتاب » الإسلام : خواطر وسوانح للـكونت هنرى دى كاسترى Comte Henry de Castrie . وبعـد سنتين ـ أى سنة ١٨٩٩ ـ ترجم « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » لأدمون دى مولان E. R. Demolin . وترجم كتاب « روح الإجتماع » سنة ١٩٠٩ وكتاب « جوامع الـكلم سنة ١٩١٤ وكتاب « سر تطور الأمم » وكلها لجوستاف لوبون Gustave Le Bon .

وترجم الـكتاب الذى ارسله سنة ١٨٦٩ الأمير مصطفى فاضل إلى السلطان عبد العزيز بشأن إصلاح الدول سنة ١٩١٢[1] .

وذلك عدا مؤلفاته ومقالاته فى التشريع والاجتماع .

وأثرت كتبه المترجمة تأثيرا قويا فى القراء إذ حركت المشاعر نحو الإصلاح وأثارت التفكير فى القضايا السياسية والإجتماعية التى تكتنف مصر ، ووجهت النظر إلى سر تقدم الأمم[2] وعقب أحد القراء على كتاب « سر تقدم الانكليز السكسونيين» وكتابى قاسم أمين تحرير المرأة والمرأة الجديدة بأنها « مقدمة لحياة جديدة وهى كافية لمحو عارها ـ الأمة ـ واحياء آمال محبيها »[3] وقال أحمد لطفى السيد إنه لم يكن غرضه سوى نشر مبادىء الحرية وأنه كان يعتنق مذهب

(١) ذكر له أحمد لطفى السيد كتبا أخرى ، قصة حياتى ١٩٦٢ ص ١٥١ ، ومختارات المنفلوطى القاهرة سنة ١٩١٢ ص٧٦ .

(٢) المرجـع السابق و The Intellectual origins of Egyptian Nationalism by Jamal Moh . Ahmad , London 1960 , p. 44 - 46;

(٣) حاضر المصريين أو سر تأخرهم لمحمد عمر القاهرة ١٩١٢ ص١٦٤ .

الاشتراكيين الديموقراطيين فى التربية والتعليم والاجتماع والسياسة والاقتصاد[1]

وتبع زغلول عدد من المترجمين الجادين الهادفين كونوا مدرسه كان لها أكبر الأثر فى تطور الفكر العربى الحديث . ومن هؤلاء أحمد لطفى السيد والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد واسماعيل مظهر وعادل زعيتر .

وقد ترجم أحمد لطفى السيد عدداً من كتب أرسطوطاليس سالكا منهاج زغلول وهدفه إذ كان يؤمن أن النهضة العلمية يجب أن تؤسس على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الأوربية . ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو ، وكانت آراؤه ومذاهبه أشد اتفاقا مع مألوف تفكيرنا آثر أن يترجم له[2] .

وحين ترجم الدكتور طه حسين كتاب « روح التربية » لجوستاف لوبون قرر أنه اختار هذا الكتاب لأن كل نهضة رهينة بشىء واحد هوصلاح التعليم ، وأن الشرق العربى محتاج « إلى تعليم صالح معتمد على قواعد صحيحة ملائمة لنفسيته وعاداته وآماله وأطواره المختلفة »[3] وحين ترجم « قصص تمثيلية » لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين أراد أن يشيع ما فيها من آراء فلسفية ومذاهب فنية وأن يحمل القراء على العناية بفن التمثيل الناشىء[4] .

وهكذا توسع أعضاء هذه المدرسة الهادفة فى الترجمة وتعاقبوا . أما الترجمة الأدبية المحض فلا سبيل إلى حصرها وتبيان أثرها . ولا شك فى أن ترجمة سليمان

---

(١) قصة حياتى لأحمد لطفى السيد ص١٥٤ وانظر مختارات المنفلوطى القاهرة ١٩١٢ ص ٧٦ حيث قال « إن الأمة لم تنتفع فى عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها انتفاعها بمؤلفاته وترجماته » .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٣) بلا تاريخ ، المقدمة .

(٤) القاهرة ١٩٢٤ ص ١٣ .

البستانى للالياذة التى صدرت سنة ١٩٠٤ فتحت أفقاً جديدا أمام الادباء .

ولعل الأدباء عامة وكتاب الملاحم العربيه الحديثة خاصة قرأوا هذه الملحمة واستفادوا منها ومن مقدمتها . ومن المترجمين البارعين محمد السباعى الذى ترجم قصة « مدينتين » لشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) والأبطال لكارل (١٧٩٥ - ١٨٨١) وعددا كبيراً من الأقاصيص . وممن ينبغى أن يشاد بذكرهم ابراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات ونقولا فياض وخليل مطران ومحمد عوض محمد وإلياس أبو شبكة ووديع البستانى ومحمد عادل زعيتر .

وحين تعرب التعليم فى الجامعات العربية كانت العلوم الغربية الموارد الأولية التى استقى منها الأساتذة ، وكانت اللغتان الانجليزية والفرنسية اللغتين الرئيستين اللتين شاع النقل منهما وفى أواخر القرن التاسع عشر - إلى بداية الحرب العالمية الأولى - عرف العرب بوساطة خريجى المدارس الروسية الارثوذكسية فى فلسطين ولبنان طرفا من الفكر والأدب الروسيين . ثم كثر الاقبال على اللغات الأجنبية فعرف العرب بوساطتها شيئاً من الفكر والأدب باللغات الألمانية والإيطالية والأسبانية . وبعد الحرب العالمية الثانية امتدت المعرفة حتى مست الآداب الهندية واليابانية وبعض اللغات الأوربية الثانوية .

وخير الترجمات وأتقنها ما قام بها أصحاب الثقافتين العربية والغربية لا أصحاب الثقافة الواحدة الراجحة على الأخرى .

— ٤ —

وتسربت إلى الفكر العربى ألوان من الفلسة والأدب كانت لها مواسم إما بالترجمة وإما بالنشر فى المجلات وإما بالتدريس فى المعاهد . ومن المذاهب الفلسفية مذهب النشوء والارتقاء لداروين ١٨٨٢ + Charles R. Darwin الذى روج له

الدكتور شبلى شميل خريج الجامعة الأمريكية فى بيروت المتوفى سنة ١٩١٧ . فقد ترجم سنة ١٨٨٤ كتاب «شرح بختر على مذهب داروين» أتبعه سنة ١٨٨٥ بكتاب اسمه « الحقيقة » حلل فيه هذا المذهب ودافع عنه . وتصدى للرد عليه بعض الباحثين منهم الشيخ ابراهيم الجورانى الذى وضع سنة ١٨٨٤ كتاب « مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء » ، وكتاب « الحق اليقين فى الرد على بطل داروين »[1] .

ورد عليه أيضاً السيد جمال الدين الأفغانى فى كتابه الرد على الدهريين وإن كان عمم حتى شمل منكرى الأديان السماوية جميعاً ، وانتصر لشميل فرح أنطون وسلامة موسى .

وروَّج فرح أنطون المتوفى سنة ١٩٢٢ مذهب نيتشة Nietzsche المتوفى سنة ١٩٠٠ فى مجلة الجامعة . ووجدت فلسفته تأييداً أكثر من مذهب داروين لمناقضة الأخير الأديان . وترجم كتابه « هكذا قال زرادوشت » الدكتور فيلكس فارس . وأعجب به عدد من الأدباء كخليل السكاكينى وعباس محمود العقاد واسعاف النشاشيبى . وترجم بعض الأساتذة الجامعيين كتباً ومقالات للفلاسفة الغربيين كبرجسون H Bergson ١٨٥٩—١٩٤١ ، وكانت ١٧٢٤— ١٨٠٤ I·Kant وأوجوست كونت ١٧٩٨ — ١٨٥٧ August Cont وشوبنهاور ١٧٨٨ — ١٨٦٠ Arthur Schopenhauer وأرنست هيكل ١٨٣٤ — ١٩١٩ Ernest H. Haeckel وهنريك ايبسن ١٨٢٨ — ١٩٠٦ Henrik Ibsen وهربرت سبنسر ١٨٢٠ — ١٩٠٣ Herbert Spencer وجان جاك روسو ١٧١٢ — ١٧٧٨ Jean Jaque Ruosseau وتولستوى ١٨٢٨ — ١٩١٠ Count Lev N. Tolstoi . ونشرت مجلة المقتطف كثيراً من الأبحاث

---

(١) الشيخ إبراهيم الحورانى للدكتور كمال اليازجى سنة ١٩٦١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ بتصرف

العلمية لأديسون ١٨٤٧ — ١٩٣١ Thomas Edison وباستور ١٨٢٢ — ١٨٩٥ Louis Pasteur ومدام كورى Curle المتوفاة سنة ١٨٩٩ وزوجها وغيرهم من علماء الطبيعة والمخترعين . وكان الدكتور يعقوب صروف ١٨٥٢— ١٩٢٧ من أبرع المترجمين للعلم والعلماء والعاملين على تطوير العقلية العربية .

وترجم الأدباء العرب بعض آثار الأدباء الغربيين شعراًونثراًوقصة ومسرحية ونقداً كتشيخوف١٨٦٠ — ١٩٠٤Anton Chekhov وموباسان ١٨٥٠ — ١٨٩٣ H de Maupassant وراسين ١٦٣٨ — ١٦٩٩ J. Racine وموليير ١٦٢٢ — ١٦٧٣ Moliére وكورنيل ١٦٠٦ — ١٦٨٤ P. Corneille وشكسبير ١٥٦٤ — ١٦١٦ W. shakespeare وشارلس ديكنز ١٨١٢ — ١٨٧٠Charles Dickens وديستوفسكى ١٨٢١—١٨٨١ F. M. Dostoevski وشو ١٨٥٦ — ١٩٥٠ G. B. Shaw وويلز ١٨٦٦ — ١٩٤٦ H. G. Wells وفيكتور هيجو ١٨٠٢— ١٨٨٥ Victor Hugo وبايرون ١٧٨٨ - ١٨٢٤ G. C. Byron وشيلى ١٧٩٢ — ١٨٢٢P. B. shelly وجوتى ١٧٤٩—١٨٣٢ Johann W. goethe ولامارتين ١٧٩٠ — ١٨٦٩ A. Lamartine ولافونتين ١٦٢١ — ١٦٩٥ J. de Lafontaine ووليام هازليت ١٧٧٨ — ١٨٣٠ William Hazlitt . وراجت من آثار المشرقيين رباعيات عمر الخيام وكتب طاغور ١٨٦١ — ١٩٤١ R. Tagore وغاندى .

— ٥ —

وما أفاد الأدب العربى المعاصر من الآداب العالمية ؟

عرف أجناساً أدبية جديدة كالمقال الأدبى والأقصوصة والمسرحية والسيرة الأدبية والنقد الأدبى المنهجى ؛ وتطور مفهوم الأدب وتعدى الشعر والمقامة إلى

كل أثر فكرى ذى مسحة أدبية ؛ وتحرر من الخطابة والحلبة ، واكتسب الاتزان ودقة التحليل وحسن العرض[1] ووحدة القصيدة والتغلغل إلى أعماق المجتمع ووصف شخصياته المختلفة والشعبية بدل الأستوقراطية ؛ وكانت نهاية الأحاجى والألغاز وتاريخ الأحداث ؛ وتَمَّ التحرر من الذرائعية والدنو من القيم الذاتية للأدب والتعبير الذاتى بدل التبعية والاستجداء ، وأدرك المعاصرون أنّ الأدب كالفن والموسيقى وسائر الفنون الجميلة عالمى ، وأن التأثّر بالآداب العالمية لا ينفى الأصالة بل يشحذها .

أما الفكر العربى فقد تجدد وتحرر ودنا من الموضوعية البحتة وواجه أزمات دفعته يمنة ويسرة ، ولكنه ظل يبحث عن الطريق السوى ، وظهر محافظون ومجددون يتدافعون فى وسط التيارات المختلفة ، غربل الزمن آراءهم فثبت النافع وانتفى الضار . وأدرك المعاصرون أن العقلية الجديدة لاتتكون إلا بعد أن تفتح جميع النوافذ على العلوم والآداب العالمية ويستساغ خير ما فيها ويربط التراث القديم بالتراث الطارف ، وأن العودة إلى وحدة العلم ضرورية ليصبح الإنسان العربى إنساناً عالمياً يفهم عن غيره كما يفهمه غيره ، وأن القيم العلمية والأدبية والروحية والخلقية مترابطة لا حدود بينها . فالعالم الحق هو الإنسان الطيب القلب الرفيع الخلق المؤمن بالله و بالإنسان .

---

(١) انظر حياتى لأحمد أمين القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٩٣ .

فهرست الاعلام

فهرست الموضوعات

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 20 / ذو القعدة / 1444 هـ
الموافق 09 / 06 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائــي

